ملء السلة من ثمر المجلة

تأليف
عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء الثاني

الطبعة الأولى - ١٤٢٢هـ

مَلْءُ السَّلَّةِ مِنْ

ثَمَرِ المَجَلَّةِ

الجزء الثاني

تأليـــف

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

ح عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخويطر، عبدالعزيز بن عبدالله

ملء السلة من ثمر المجلة. - الرياض.

٣٨٨ص، ١٤×٢١سم

ردمك: ٧-٤٩-٠-٣٩-٩٩٦٠

١- المقالات العربية - السعودية أ- العنوان

ديوي ٠٨١ ٢٢/٠٥٨٩

رقم الإيداع: ٢٢/٠٥٨٩

ردمك: ٧-٤٩-٠-٣٩-٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

هذا هو الجزء الثاني من كتابي «ملء السلة من ثمر المجلة»، وهو مثل سابقه، الجزء الأول، احتوى على مجموعة مقالات سبق أن نشرت في الغالب في «المجلة العربية ما بين التواريخ الآتية: محرم ١٤١٩هـ إلى صفر ١٤٢٢هـ».

وكانت تنشر بانتظام كل شهر مقالة، وبعضها نشر في «مجلة الفيصل»، في أوقات متفاوتة. وقد بُينت في هامش أول صفحة من المقالة المجلةُ التي نشر فيها المقال وتاريخه.

وهذه المقالات مختصرة، لتتناسب مع طبيعة المجلة، وما يرغبه قراؤها، وهي تلقي الضوء على بعض نصوص من التراث. توضع هذه

النصوص تحت المجهر، ويخترق ضوؤه طياتها، ويغوص إلى أعماقها، ليبرز ما يحويه النص من أفكار، وما يخفيه من ملامح، وما يرمي إليه من أغراض، وما يلمز إليه من إشارات خفية، ويكشف أحيانا الناحية النفسية لقائل النص، أو المقول له، ويحدد معالم سير الأذهان في ذلك الزمن، ما يأتي منها حقيقة أو خيالاً، ومدى القبول أو الرفض.

ومن الأهداف لهذه المقالات أنها تسهل للناشئ في عصرنا هذا الاطلاعَ على تراث الآباء، وما في مفرداته من جمال ونفع، وتقرِّب ما غمض منه إلى فهمه في هذا الزمن الذي اختلفت فيه المعايير والمقاييس، وأصبح ما كان بالأمس، بمعايير اليوم، أمراً يكاد لا يصدق، لزوال بعض حواشيه، ولأن جوانب محيطه قد

بهتت، ولم تعد الإطار المهم للصورة التي بقيت. والأمل أن يقدر الناشئ تراثه ونصوصه حق قدرها، وأن يتمتع بما يكون معروضا لجماله، ويتعظ بما كان مجالاً للعظة، ولينتفع بما قد يكون عِبْئة نفع، وليبتعد عما قد يكون صرخة تحذير، وليندفع ليستجيب للنجدة فيما جيء به لذلك، خاصة ما يأتي حصيلة لمقارنة. والمقارنة هدف رئيس في هذه المقالات، فالمقارنة تكشف الفرق، وتبين مدى الفائدة أو الضرر فيما هو متبنىً اليوم، ومدى البعد بين الحالين، والمقارنة لا تقتصر على نص قديم مع فعل حديث في بلادنا بل تتعدى إلى بلدان أخرى مما يفتح أبواباً يؤمل أن تكون منافذ للنفع العميم، وسعة الثقافة.

وكل مقال من هذه المقالات له طبيعته، وله هدفه، وله مرماه، والمقدمة ليست مجالا لشرح

طبيعة كل مقال، ولا يبين ذلك إلا لسان المقال نفسه، واللسان هنا ذرب مبين.

أرجو أن يكون في هذا من النفع ما يبرر خروجه، والأمل فيه، وأن يكون فيه من الجاذبية ما يساعد من بدأ قراءته على التهامه إلى نهايته.. والله الموفق.

عبدالعزيز الخويطر

الاسم والزمن [1]

يولد الإبن، وتولد البنت، فيختار الأهل اسما يجدونه مناسباً؛ قد يختارونه لأنه اسم أحد آبائهم، أو أحد أقاربهم، أو صديق من أصدقائهم، أو يختارونه مماثلا لأسماء تاريخية، أو أسماء أنبياء أو رسل، أو صحابة، أو شعراء، أو أبطال أو فرسان.

والمجتمعات تختلف في هذا، ويحكمها عادات وتقاليد، تخضع لها زمنا طويلا، قبل أن تتأثر بأمر خارجي، يجعلها تحيد عما كانت متمسكة به، وتترك ما كانت مقيدة به، إلى أسماء جديدة، فيها جاذبية أكثر، أو فيها فائدة

(١) نشرت في المجلة العربية في محرم ١٤١٩هـ الموافق: مايو ١٩٩٨م العدد (٢٥٢).

أكثر، كأن تُحتل البلاد، فيتبنى أهلها أسماء المحتلين، لأن هذا يعود عليهم بفائدة.

وبعض المجتمعات لا تكتفي باسم واحد، بل تعطي الشخص اسمين، وغالباً أحدهما اسم نبي أو رسول، أو صديق، فيكون هذا للتبرك، وإظهار الاتِّباع الديني، لدين بعينه، أو مذهب بعينه، وهذا قد يدل على أن الأسماء هي انعكاس لما يقدره المجتمع، ويعتزبه.

وكانت الأسماء في الجاهلية ذات صبغة متميزة، فللرجال أسماء تدل على الشجاعة، والشدة والبأس؛ وقد يؤدي هذا إلى اختيار أسماء سباع أو طيور كاسرة، فأسد وسبع وذئب وضبع ووحش، ونمر، وتصغير هذه الإسماء مثل أسيد، وسبيع، وذئيب، وضبيع ونمير، هي من بين ما يختارونه من الصيغ،

والتصغير أحيانا للتمليح، وأحياناً لزيادة التأثير، فقد يقصد بأسيد غير التمليح، فيراد به شدة البأس، وأحياناً يكون للمخالفة بين اسم الأب والإبن أو الإبن والأب والجد، فيكون أحدهما حارث، والثاني حويرث، والثالث محروث، أو حرثان أو حويريث.

والعرب كانوا أحيانا يأخذون الاسم من المحيط حولهم، ولا يدققون في هذا، وكأنهم يستوحون فيه اللحظة والساعة، فصخر، ومطر، ورياض، وغصن، ونسر وصقر وعقاب وكلب، وجحش، وجبل، وسهل، وعرقوب، وجربوع، وكليب، وغيث، وفهر، وجفنة، ورابح، وغضبان؛ فيكون الاسم أخذ من طير مرّ، أو حيوان صوّت، أو شجرة ظللت، أو حجر ناب، أو مطر منهمر، أو ما إلى

ذلك مما صادف أن لفت النظر وقت الولادة .

والبنات لهن الحظ الأوفى من الاختيار، فأسماؤهن تختار من أملح الحيوانات، ومن أحب الأشياء، وما من شيء جميل مؤنث إلا استعاروه للبنت، فالغزلان لهن أسماء كثيرة، وقد استعيرت كلها لهن، كما اختيرت أسماء الأسد العديدة للرجال؛ واختير للبنات من خير ما في الطبيعة: فمزنة، وعفراء، وعبلة، وحسناء، ووضحاء، وعنيزة، وبثينة. وكريمة، ونبيلة، وجميلة، والخنساء، وهي من أسماء الغزلان، للخنس الذي في أنف الغزال وكلها أسماء استعيرت أحياناً من صفات حسنة .

ولايزال هذا هو الدأب على مر العصور، فالبنت تحظى بالاسم الجميل، ومن حسن الحظ أن أسماء الصحابيات أسماء مختارة وجميلة،

فبقي الاسم جميلاً على من تسمى به، وتجمع بين الحسنيين: جمال الاسم، وكونه اسم صحابية، أو عابدة؛ وبعد انتشار الإسلام دخلت اسماء جديدة وسعت دائرة الاختيار، ولكنها زاحمت بعض الأسماء القديمة، مما انقرض أو كاد، وحلت محلها، وأصبحت الأسماء الآن تدل على عصرها وزمنها، وأصبح لكل زمن أسماؤه، بحيث يعرف الإنسان أحياناً، إذا سمع إسما، من أي زمن هو.

والمؤلم أن بعض الأسماء الغربية بدأت تدخل إلى المجتمعات الإسلامية العربية، وهي أسماء لا مدلول لها، أو لها مدلول لا يعرف حتى يفسر؛ وهي معروفة لأنها ذات تركيب غير عربي، وأذكر أن أحد الأخوة سمى «جوان»، فظن قوم أنه اسم غير عربي، ولهم حق في هذا،

وفوجئوا عندما فسر لهم من سمى الاسم، أنه اسم عربي، وهو اسم ابن عمر بن أبي ربيعة! ولعل كثيرون يجهلون هذا إلى اليوم.

والذي أدى بنا إلى هذا الحديث تعليق قاله الجاحظ وهو محق فيه كل الحق، ونشاهده في الأسماء التي بيننا، يقول الجاحظ:

«وربما كان اسم الجارية غليم، أو صبية، أو ما أشبه ذلك، فإذا صارت كهلة جزلة، وعجوزا شهلة؛ وحملت اللحم، وتراكم عليها الشحم؛ وصار بنوها رجالاً، وبناتها نساءًا؛ فما أقبح حينئذ أن يقال لها: يا غُلَيِّم كيف أصبحتِ؟ ويا صُبَيَّة كيف أمسيتِ»[1].

***

(١) البيان والتبيين: ١/ ١٤٦.

حب الاستطلاع[1]

هذا تعبير نافع، يأتي في كتب علم النفس، يُعَرِّف غريزة من الغرائز القوية عند الإنسان، ويعطي أمثلة عنها؛ وهي في الطفل أقوى ما تكون، ثم تتدرج مع الإنسان وهو يكبر، وتأخذ شكلا يختلف عما كان في الصغر؛ وهي في الصغر لها دور، وفي الكبر لها دور، ومادامت غريزة فلابد أن دورها مهم في الحياة.

وهي مفيدة للصغير في صغره، لأنها هي باب العلم له، إلى ما يريد أن يعرفه، ويختزنه لمستقبله؛ وقوتها هي التي تجعله يداوم على متابعة الأمور، ومعرفة كنهها، وما يكمن داخلها، وما يكون وراءها؛ فهو يكشف

(١) نشرت في المجلة العربية العدد (٢٥٣)، شهر صفر ١٤١٩هـ الموافق يونيه ١٩٩٨م.

المغطى، ليعرف ما فيه، ويذوق ما يؤكل، ليخبر منه طعمه ، وينصت ، ويتبع بتمعن مصدر الأصوات، ليقرن الصورة بالصوت الخارج؛ فطائر البوم يشده صوته في الليل، وربما يزعجه، ويخيفه، حتى يعرف أنه طائر، وكذلك أصوات الحشرات في الظلام داخل البيت، وفي الحقل، والغابة، والصحراء.

ولكن حب الاستطلاع عنده ليس له ما يحزمه، ولا ما يقيده، فقد يقوده إلى الضرر، ويؤدي به إلى الهلاك؛ فالحية المنسابة، إذا أعجبه حسن تلويها، وتطاوح رأسها، وأراد أن يعرف ماذا يحدث منها؛ فإن جفلها، أو مسكها قد يكون في فعله هذا هلاكه؛ وكذلك لمس الجمر، ولمعان احمراره، وما قد يكون فيه من إغراء؛ والجلوس عند بيت النّمل، أو خلايا النحل، أو

لمس فروة الأسد، من خلف القضبان؛ وكم من طفل، بعد أن كبر، بقي في جسمه «نياشين» من الندوب، حملها معه من الصغر ثمرة للاستطلاع.

والعالم في معمله، وفيما يصل إليه من اكتشاف، وما يحرزه من نجاح في اختراع، يكمن وراءه حب استطلاع راقٍ، تبلور مع الوقت، إلى أن وصل إلى القمة التي يصل إليها حب الاستطلاع؛ والتاجر ينزل بلداً، يستطلع فيه أسواقه، ويعرف البضاعة الرائجة فيه، والبضاعة المربحة تشترى، وتنقل إلى بلد آخر؛ كل هذه جوانب تدخل في حب الاستطلاع.

وحب الاستطلاع عند الكبار أحياناً يكون معيباً، لأن المرء يدخل أنفه مختاراً فيما لا يخصه، ويسأل عن أمر لا يعنيه، وينال بسبب ذلك

نهراً، أو تأنيباً، أو أكثر من ذلك، مما هو في غنى عنه؛ ولكن غريزة حب الاستطلاع القوية أنسته نتائج التطفل، وأسكرته عن إدراك الضرر بقدر ما أنسته النتائج المؤلمة.

وحب الاستطلاع مرة جعل جارية ترد على رجل مهيب، رداً كبرّها وصغره؛ فقد كانت تحمل إناءً عليه غطاؤه، فقال لها ما معناه:

ما في الإناء يا جارية.

قالت له: لو كان أصحابه يريدون أن تعرف لما وضعوا عليه غطاءً يا بارد!

وإذا كان هذا الرد مؤلما، إذ جاء من امرأة مملوكة إلى رجل من المتميزين في المجتمع؛ فإن هناك حب استطلاع قضى على صاحبه بقطع رأسه، فقد سأل أحد جلساء ملوك العرب في الجاهلية الملكَ عما يحدث لو صبّ دم رجل على

هذه الصخرة التي أمامهم، فقال له الملك: ستكون التجربة بك ونرى، وسفك دمه، ليعرف جواب سؤاله.

وهناك حب استطلاع سجله التراث فيه طرافه، وهو يصف حالا كثيراً ما تحدث بين متجاورين، أحدهما يقرأ شيئاً، أو يخط شيئاً، والقصة هكذا:

«كتب أبو يوسف القاضي يوماً، وعن يمينه إنسان، فلاحظه يقرأ ما يكتب، ففطن أبو يوسف، فقال له:

وقفت على شيء من خطأ؟

قال: لا، والله، ولا حرف.

فقال له أبو يوسف: جزيت خيراً! كفيتنا مؤونة قراءته، ثم أنشأ يقول:

كأنَّهُ مِنْ سُوءِ تَأْدَابِهِ

تَعَلَّمَ فِي كُتَّابِ سُوءِ الأَدَبِ(١)

ونسارع ونتساءل هل غشُّ الطالب في الاختبار من زميله من باب حَب الاستطلاع، خاصة في اختبار علم النفس!!؟

***

(١) الجليس الصالح: ٢/٣٢٥.

أرابح سلم أم خاسر[1]

العلاقة بين الأستاذ وتلميذه، يتوقع أن تكون جيدة، عطف من الأستاذ، وطاعة من التلميذ، فالأستاذ في موقع أعلى، والتلميذ في مكان أدنى، الأول يعطي، والثاني يأخذ؛ الأول يوجه، والثاني يتلقى التوجيه، الأول مُرْشِد، الثاني مُرْشَد؛ الأول مليء بالعلم، والثاني خالٍ منه، أو من بعضه، وراغب أن يمتلئ به.

هذه العلاقة تجعل من الطبعي، والمسلم به، أن يُبدي التلميذ احتراماً لأستاذه، حتى يضمن رضاه، ويطمئن إلى القبول منه؛ وهذا يجعل المعلومات تنساب من المعلم انسياباً هادئاً، متتابعاً، لا نبوة فيه، ولا جفاء.

(١) نشرت في المجلة العربية في العدد (٢٥٤) ربيع الأول ١٤١٩هـ الموافق يوليو ١٩٩٨م.

ولا يضير المعلم أن يرى تلميذه يشب عن الطوق، ويبز الآخرين، وينافسهم، فيغلبهم، لأن هذا من فائدته، ويزيد رصيده العلمي، ففي مثل هذا التلميذ فخر لأستاذه، وبناء لبنات أعلى في صرح شهرته، وفتح آفاق في هذا الحقل للأجيال القادمة؛ وفي سجل المعلم والتلميذ خلود للاثنين، هذا بماضيه في جيله، وهذا بمستقبله في جيله.

ولكن المعلم لا يقبل بحال من الأحوال أن يكون ارتقاء تلميذه على حساب تدنيه؛ ولا يطيق أن يراه يبني طبقات في عماد العلم بهدم سمعة مدرسه، وإظلام ما أضاء من مقامه في مجتمعه، وبين عارفيه؛ خاصة إذا جاء هذا الفعل النابي من التلميذ بطريقة فيها خبث وختل، ظناً أنه سوف يخدع محيطه بما في ذلك

أستاذه، وأنه لا أحد سوف يلاحظ هذا التصرف، وأن بإمكانه أن يتسلل خفية، فيصعد على أكتاف أستاذه، تاركاً له خلفه في الصفوف، أو تحته في سلم المجد.

حينئذ يزأر الأسد، وتهب العاصفة، وتهيج الريح، ويعلو زبد موج بحر الغضب، ويلتفت المعلم التفاتة تهز كيان تلميذه، وتعيده إلى صوابه ذليلا كسيرا، وإن رضي عليه أستاذه فمن تفضل وتكرم وعطف؛ فيخسر التلميذ المحاولة الخاطئة، ولا يجني إلا نتائجها التي تكون حينئذ ردته إلى الوراء، وأركسته إلى الأرض، بعد أن حلق به طموحه المضلل في عنان السماء مع الأشباح.

وفي كل فن من العلم أستاذ وتلميذ، والناس في كل فن يختلفون رقة وخشونة، ولعل من

أخشن هذه الفنون الشعر وبعض الشعراء؛ فهم وإن كانوا أهل غزل مليح، يلين الصخر، ووصف بديع يهيج النفس، ومدح بديع يدر المال، ويعتق الرقاب، ويبوئ الشعراء منازل عليا، إلا أن فيه الهجاء، وهو سيف حاد ذو شفرتين، طرير قاطع، والويل لمن جاء في طريقه؛ وهذه زفرة جهنمية من أحد الشعراء، لم تأت بهجو، ولكنها كادت، فكيف لو!

«قال أحمد بن صالح المؤدب، وكان أحد العلماء:

أخبرني جماعة من أهل الأدب أن بشاراً غضب على سلم الخاسر، وكان من تلامذته ورواته، فاستشفع عليه بجماعة من إخوانه، فأتوه، فقالوا:

جئناك في حاجة؟

قال: كل حاجة لكم مقضية إلا سلما.

قالوا: ما جئناك إلا في سلم، فلابد من أن ترضى عنه.

قال: فأين هو؟

قال: هو ذا.

فقام سلم، فقبّل رأسه ويديه، وقال:

يا أبا معاذ، خرّيجك، وأديبك.

قال: يا سلم؛ من الذي يقول:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَم يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ
وفَـازَ بالطَّيِبَـاتِ الفَاتِكُ اللَّهِـجُ

قال: أنت يا أبا معاذ، جعلني الله فداك،

قال: فمن الذي يقول:

مَنْ راقب النَّاسَ مَاتَ غَمَّاً
وفَـــاز باللَّـــذةِ الجَسُــور

قال: خرّيجك يقول ذاك ـ يعني نفسه – فقال:

فتأخذ معاني التي عنيت بها، وتعبت في استنباطها، فتكسوها ألفاظاً أخف من ألفاظي حتى يروى ما تقول، ويذهب شعري .إلا أرضى عنك أبدا.

قال: فمازال يتضرع إليه، وتشفع له الجماعة حتى رضي عنه»[1].

***

(١) الجليس الصالح: ٣٦.

التـواء في العقـل[1]

العقل جوهرة رقيقة، تنمو بالتغذية، وتقوى بالتمرين، ولكنها مثل الماء السائل في إناء قد تنسكب خارج الإناء، فيختل أمر الرأس الذي هي فيه، وصاحب الرأس الذي يحمله؛ ولها قالب صبت فيه، فإذا طرأ عليها ما غيّر من شكلها، وأصابها اعوجاج أو التواء، أو انفصل منها جزء عن جزء، جاءت بخلاف ما خلقت له، ونتج عن تصرفها أبنية منهارة.

وأمامنا قصة تبين كيف يختل العقل أحياناً، وكيف يستغل هذا إبليس فيوجه صاحبه وجهة يظن أنه فيها على حق، وهو على الباطل؛ ولا يعدم إبليس، وتفكير الرجل المعوج، أن يأتيا

---

(١) نشرت في «المجلة العربية»، العدد ٢٥٥، ربيع الآخر ١٤١٩هـ، أغسطس ١٩٩٨م.

بحجج ظاهرها قوي، وباطنها أوهى من بيت العنكبوت؛ وفيها يتبين الالتواء، وعسف الأمور عسفاً حتى تبدو وكأنها منطق معقول .

ومعنى هذا أن صاحبها مختل العقل، وأنها ملتويه، من عدة جهات، لأنه يأتي بالشيء، وقد بناه من وجهة نظره على منطق، ويأتي بعد ذلك بأمر لا منطق فيه، يدغدغ فيه العاطفة، وينصِّب نفسه حاكماً يدير أمر الناس، ويعرف مصلحتهم أكثر من مصلحته، فهو يقفز من منبر إلى منبر، ومن رصيف إلى رصيف .

ولا يؤاخذ هذا بقدر ما يؤاخذ متابعه، ومن يتبنى رأيه، ويسير تابعاً خلفه؛ وإن كان المرء عند التبصر يجد الأسباب، وغالباً ما تكون كامنة في أن هذه الدعوة الضالة تسمح بإشباع الرغبات المتدنية في الإنسان، كما فعل مزدك

وغيره؛ وكثرة الناس تجعل من المعقول أن يكون بينهم من شذ في تفكيره واتجاهه عن الجماعة، فتبع الناعق لهذا السبب، وأحياناً دون أن يعلم انتقاماً من مجتمعه.

ومن أعجب ما جاء من أخبار الزنادقة في العصر العباسي، وهو العصر الذي كثرت فيه أمور مخالفة الدين، وظهور أديان ضالة مضحكة، بسبب ترجمة كثير من الكتب، وكثرة الجدل، مع جهل بعض الناس بما هو أعمق مما يظهر، ما رواه سهل بن صالح الأصبهاني الكاتب، قال:

أخذ النخشبي بالبصرة رجلا يخنق الناس، ولا يسلبهم ثيابهم، فقال له:

ويلك! ولِمَ تفعل هذا؟ إذا كنت لا ترغب في ثياب الرجل وماله، فَلِمَ تقتله؟

فقال له: ويلك! أما أول ذلك فإني ألحق المخلوق بالخالق، والثانية أن هذه الأرواح محتبسة في هذه الأجساد، فأخلصها تلحق بالهيولَى والصفا.

قال: فَلِمَ لا تخلص نفسك أنت؟

قال: أخلص مئة نفس أحب إليّ من أن أخلص نفساً واحدة؛ على أن نفسي لابد لها من مخلص؛ ونفسي طاهرة، وأنفس هؤلاء قذرة؛ وأيضاً يخف عنا السَّفِل، ولا يزاحمونا في الأمور، ويطيب الهواء، وتتسع الديار، وينقطع الغبار.

وبعد: فكل من كان من أهل الخير ألحقته بالخير الذي له في الآخرة، وأيضاً إن كان الإنسان في هذه الدنيا في ضيق أرحته منه، وإن كان فاسد الكيموس أرحته؛ وإن كان سفلة أرحت الكرام من معاشرته.

فأمر بضرب عنقه»[1].

فمن محاولة استعمال منطق أعوج في تخليص الأرواح من محابسها، إلى أهميته هو لأداء هذه الرسالة أولا، إلى إراحة المجتمع من أسافل الناس، إلى تنظيف الهواء.

والحرص على إراحة الناس بطرق معوجة، يأتي بها منحرفون بطرق مختلفة، فإذا كان هذا جاء بها على هذا الأساس، فآخر لم يكن بعيداً عنه، والقصة كما يلي:

«حُكِيَ عن أبي شاكر الديصاني ـ والديصانية ضرب من الثنوية ـ أنه اشترى كارة دقيق، وحملها على رأس رجل شيخ، فلما صار إلى داره سأل الحمّال عن سنّه، ورأى ضعف جسمه، فأخبره بسن عالية؛ وساله عن عياله، ومعيشته،

(١) الجليس الصالح: ٣/ ٢٠٧.

فذكر له سوء حاله، وكثرة عياله، فقال:

لقد رحمتك، ورققت لك، وأريد أن أذبحك، وأميط الشقاء عنك.

فأضجعه، فذبحه»[1].

مسكين هذا الشيخ لعله عند سؤاله عن سنّه وحاله، غالى في عدد سني عمره، وزاد في عدد عياله، ولم يدر أن هذا المجرم المنحرف كان يخطط للتهرب من الكراء، وجزاء حمل البضاعة بهذه الداهية النازلة.

***

(١) الجليس الصالح: ٣/٢٠٨.

وسائل إقناع [1]

يحتاج المرء أن يقنع غيره بأمر من الأمور، ليكسب فائدة يرجوها، أو يزيل ضرراً نازلاً، أو يكاد ينزل، وقد يكون الجهد المبذول للإقناع لقبول نصيحة في تحسين سلوك، أو تعديل سير؛ أو يكون الإقناع في ثوب حكمة تهدى لتثبت مبدءًا عاماً، ولتضع علامات على طريق من طرق السير في الحياة.

والإقناع يحتاج إلى اختيار الأسلوب الملائم، كلمة، وجملة، وتركيبا؛ يختار البدء والفحوى والنتيجة؛ ويوفق المرء بقدر ما ينجح في حسن اختيار تلك الأشياء؛ والإطار المهم هو إجادة رسم الصور في هذا المجال؛ وإن رسم الأمور

(١) نشرت في المجلة العربية، بالعدد (٢٦٥) في جمادى الأولى ١٤١٩هـ الموافق سبتمبر: ١٩٩٨م.

المعنوية في صور حسية، سبب من أسباب الأقناع، ووسيلة من وسائله الناجحة؛ لأن الصورة الملموسة أقرب للتصور، وأسهل لاستيعاب الذهن، لتعوّد الإنسان على رؤية الأمور الحسية، ولمسها، والعيش معها.

والفكر العربي يلجأ إلى هذا عن طريق تجسيد الصور أحياناً، وعن طريق استعارة الصور أحياناً أخرى، وإلباس الفكرة لباساً يظهرها للعيان؛ ومن أبرز الوسائل هنا صور البيان والبديع، التي وجد الفصحاء فيها من وسائل الإقناع ما جعلهم يستفيدون منها فائدة جلّى؛ والأمثال في أقوالهم وأمثالهم وحكمهم كثيرة، وأبرز ما تكون في الشعر، للثوب القشيب الذي يُلبسه الأفكار والمعاني، فيجعلها مقبولة، بعد أن كانت جذابة.

فعندما يريد الإمام الشافعي أن يقنعك أن تعتمد على نفسك، وأن لا تعتمد على الآخرين في قضاء حوائجك، فإنه لا يقول هذا مباشرة، ولكنه يأخذ أداة رسم، ويرسم صورة حسية، تلمسها بيدك، وتراها بعينك، فلم تعد فكرة ذهنية، تقال باللسان، وتسمعها الأذن، ويأخذها الذهن والفكر، بالتحليل والتمحيص، يقول الشافعي:

مَا حَكَّ جِلْدَكَ مِثْلُ ظُفْرِكَ
فَتَوَلَّ أَنْتَ جَمِيعَ أَمْرِكَ[1]

ثم يوغل في إيضاح الدهر، وأنواع أيامه، ويكثف الألوان للصور البديعة التي يرسمها في هذا الأمر فيقول:

الدَّهْرُ يَوْمَانِ ذَا أَمْنٌ وذَا خَطَرُ
وَالْعَيْشُ عَيْشَانِ ذَا صَفْوٌ وَذَا كَدَرُ

(١) ديوان الشافعي: ٧٧.

أَمَا تَرَى البَحْرَ تَعْلُو فَوْقَهُ جِيَفٌ
وتَسْتَقِرُّ بأقْصَى قَاعِهِ الدُّرَرُ
وفِي السَمَاءِ نُجُومٌ لَا عِدادَ لَهَا
ولَيْسَ يُكْسَفُ إلاَّ الشَّمْسُ والقَمَرُ(١)

ويأتي بصورة مقنعة لجدل بَيَّنَ فيه جانباً مادياً فرسم الصورة التي على العاصي أن ينظر إليها، فيرى مقدار بعده عن الحق، وانغماسه في الباطل، يقول الشافعي:

تَعْصِي الإلـٰهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ
هذَا مُحَالٌ في القِيَاسِ بَدِيعُ
لوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لأَطَعْتَهُ
إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ(٢)

(١) ديوان الشافعي: ٨١.
(٢) ديوان الشافعي: ٩١.

وعندما يريد أن يثبت ضعف القوي، وقوة الضعيف، في الأذهان، يلجأ إلى الصورة الحسية، وتأتي الحجة في هذا الرسم دامغة:

أَكَلَ العُقَابُ بِقُوَّةٍ جِيَفَ الفَلاَ
وَجَنَى الذُّبَابُ الشَّهْدَ وَهُوَ ضَعِيفُ(١)

وترسم ريشة الشافعي «الغريب»، فتأتي الصورة بديعة حين يقول:

إِنَّ الغَرِيْبَ لَهُ مَخَافَةُ سَارِقٍ
وَخُضُوعُ مَدْيُونٍ وَذِلَّةُ مُوْثَقِ
فَإِذَا تَذَكَّرَ أَهْلَهُ وَبِلاَدَهُ
فَفُؤَادُهُ كَجَنَاحِ طَيْرٍ خَافِقِ(٢)

***

(١) ديوان الشافعي: ٩٦.
(٢) ديوان الشافعي: ٩٩.

حصيلة التجارب[1]

يجني المتبصر من التجارب درراً، هذا إذا كان عاقلاً، يتدبر ما رأى بذكاء وفطنة؛ يُعمل ذهنه، وينيم عاطفته؛ يهضم ما يرى، ويقيس غيره بما رأى؛ يخزن في ذاكرته حصيلة ما يتوصل إليه، ويستدعي من هذه الحصيلة عند الحاجة ما يقتضي الأمر استدعاءه، يعوّد نفسه النشاط في التفكير، ويبعد عن ذهنه الرفاهية والكسل؛ ورفاهية الذهن وكسله من أكبر الدواهي التي يمكن أن يصاب بها المرء، ومظهر الرفاهية أن يدير دفة الفكر إلى ما يريح النفس، وينيم العقل عما يزعج، فيكبر الداء، ويهمل الدواء.

---

(١) نشرت في المجلة العربية العدد (٢٥٧)، جمادى الآخرة ١٤١٩هـ، أكتوبر ١٩٩٨م

في التجربة درس، وفيها عظة، تقاس تجربة اليوم بتجرية أمس، ومن المقارنة تصنع سبيكة ذهب، وتحتاز جوهرة ثمينة، وما وُجِدَت الحِكَم في أذهان المسنين، وعلى ألسنتهم إلا بعد أن صُهرت زمنا داخل نفوسهم، فخرجت ناضجة الثمرة، زاهية الجوهر.

ومن نتائج التجربة للعاقل أنه ينطبق عليه القول الحكيم: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»، لأن المؤمن يمشي بهدي دينه الذي يوجب عليه التبصر في كل ما حوله مما هو ثابت أو طارئ، والمؤمن إذا رأى الخطأ لا يسير بقدميه إلى التهلكه، بل يتفادى العودة للخطأ؛ وإن لم يستطع، وجاء فوق الطاقة ما قد يجبره عليه، جاء بما هو أخف.

وأصحاب التجارب الذين استفادوا من

تجاربهم أفادوا غيرهم مما استفادوا منه، فلم يبخلوا، ودونوا من ذلك ما دونوا، وشافهوا به من شافهوا، لأنه يؤلمهم أن يروا داء وعندهم دواؤه فلا يمنحونه، أو ظلمة وفي يدهم ما يبددها فلا يتقدمون بقناديل النور التي يملكونها؛ ولهذا امتلأت كتب الأدب بالنصائح، وهي زبدة التجارب، في ميادين مختلفة، جاءت بضاعة مزجاه لمن ألقى السمع، وأحب أن يرعوي.

والعلم المدون في الكتب أغلبه طرح التجارب، تراكم مع السنين، وتبلور مع مرور الزمن، وأضيف إليه من النظريات التي أثبت مرور الزمن صدقها، وكأنها قد جربت، ووجدت حقيقة تتفق مع نظام الكون الثابت، وكل جيل أضاف إلى ما تجمع من قبل؛ فزاد هذا الحقل،

وتوسع هذا الميدان، حتى صار هذا من مظاهر تقدم الأمم ورقيها.

وجاءت حصيلة بعض التجارب قواعد تصلح أن تدرس على أنها منهج ثابت؛ وحرص المربون على إبرازها، لأن أي إنسان يحتاج إليها في عمره المديد، وإغفالها، أو الجهل بها، قد يوقعه في المحذور؛ وأهمية التنبيه إليها تأتي من أن فيها جوانب براقة قد تخدع الإنسان إذا لم يتنبه لها؛ فإهانة اللئيم مقبولة، ولكن ليس من المقبول إهانة الكريم؛ وأن تحرج السفيه أمر مغفور، أما إحراج العاقل ففيه محذور، ومعاشرة العفيف فضيلة، ولكن معاشرة الفاجر إثم، وأن تجيب من سألك فامر متوقع، أما أن تجيب من لم يسألك فأمر منتقد، وأن تسأل من يعطيك الجواب أمر مفيد، أما

سؤال من يبخل عليك بالإجابة فليس من العزة أن تسأله ، وليس من الحكمة أن تحدث من هو غافل عنك ، غير منصت إليك .

وهذا نص يجمع درراً من حصيلة التجارب في هذا المجال :

«قال عبدالملك الأصمعي : قال أبو عمرو ابن العلاء : كن من الكريم على حذر إن أهنته ؛ ومن اللئيم إن اكرمته، ومن العاقل إذا أحرجته؛ ومن الأحمق إذا مازحته؛ ومن الفاجر إذا عاشرته . وليس من الأدب أن تجيب من لا يسألك، ولا تسأل من لا يجيبك، أو تحدث من لا ينصت إليك .

وعلق القاضي الجريري على هذا بقوله :

وكأن قول البحتري :

وَسُؤَالُ مَنْ لاَ يَسْتَجِيْبُ في اسْتِـ
ـخْبَارِهِ كَمُجِيْبِ مَنْ لاَ يَسْـــأَلُ

مأخوذ من قول أبي عمر في هذا الخبر، وما ذكره من سؤال من لا يجيب، وإجابة من لا يسأل»[1].

لأن في بعض ذلك جرح يوجب النقمة والثأر، وفي بعضه دنس، وفي بعضه هدر للكرامة.

***

(١) الجليس الصالح: ٢/١٢٨.

قصَّر ولم يقصر[1]

في النص الأثري الذي سوف أسوقه اليوم أمران، اتخذتهما عمودي الحديث، أولهما يخص الأكل والعادات المأثورة فيه، وما يرى القوم مراعاته فيه، وكيف تسلل مع الزمن، وبقي إلى وقت قريب في بعض المجتمعات، ولعله باقٍ في بعض آخر، لأن الأسباب التي أزالته من مجتمع لم تتهيأ في مجتمعات أخرى، فبقي؛ وهذا الأمر هو أن من جلس على مائدة أعطاها حقها من الأكل، لا يزيد فيرهقها عن الفئة التي سوف تخلفه على المائدة، ولا يوفرها إلى الحد الذي يكف يده عن الطعام، في أول قعدة القوم، فيحرم الجائع من أن يطفئَ

(١) نشرت في المجلة العربية في العدد (٢٥٨) في رجب ١٤١٩هـ، الموافق نوفمبر ١٩٩٨م.

جوعه؛ ويحرج صاحب المائدة ويظهر مائدته بالنقص، وطعامه بعدم اللذة؛ والمقبول هو أن يجلس ويأكل كأوسط ما يأكل أمثاله، ولا ينهض قبل أن ينهض من هو أولى منه بالنهوض.

وكانت العادة في الجزيرة العربية، مراعاة للشح في الأزمنة القديمة، أنه إذا دعي قوم إلى وليمة، أو نزلوا ضيوفا، أن يقعدوا على المائدة، وإذا وجد رئيس المائدة، وهو كبير الضيوف، أنهم أخذوا كفايتهم، كف يده، وحمد الله، وأثنى على المضيف؛ ثم تأتي دفعة أخرى تليهم، فتقعد، ويكون لها ما كان للأولى، ويوقفهم رئيس المائدة عند حد؛ ثم يأتي العاملو ن على المائدة، دفعة ثالثة، أو نساء البيت.

وكان بعض من أراد أن يوقع بين حيين، أو أن ينتقم من آخر، لثأر بينهما، يكف يده في أول الوقت، «فيتكهرب الجو»، ويتشحط القوم، وتمسس أعصابهم، وقد يقسم صاحب المائدة على دعوة أخرى، محواً لأي فكرة أن الطعام لم يكن مسامقاً للمقام.

وجاء الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ وهي لفتة من لفتات العبقرية عنده، وساعة من ساعات الشجاعة، فلما أراد أحدهم، وهو رئيس قبيلة، أن يحرج المضيف، وهو رئيس قبيلة أيضاً، كف يده في أول الطعام، وتوقع أن يكف الملك عبدالعزيز يده، إلا أن الملك عبدالعزيز قال: «إنها سعودية»، وكأنها عادة تخالف تلك العادة، وقال: من شبع، وأراد أن ينهض فلينهض، أما أنا فلن أنهض.

فأُخذ صاحب المكيدة، وبطلت حيلته، ومنذ ذلك اليوم، لم يعد للأمر أهمية، من نهض مبكراً قال: يا جماعة إنها سعودية.

وثانيهما يخص الحكام، والرد عليهم، والحجاج معهم، ومحاولة المرء الانتصار عليهم، متذكراً فقط نفسه، ومهتماً بها؛ والحاكم لا يضيره أن يُخَالَفَ رأيه معه في خلوة، بل قد يستفيد من هذا، ويشكر عليه، ولكنه لا يحبذ أن يكون الأخذ والرد أمام الناس، لأنه لا يضمن أن يكون صاحب اليد العليا في الجدل، وهذا يلمس هيبته، ويقلل قيمته في أعين الحاضرين، وهو في أشد الحاجة إلى الهيبة، ليحكم الناس بحزم.

وإذا حدث أن قام جدل لم يكن متوقعاً، فإن على الحاكم أن لا يعطي المجال للجدل، وأن

يختمه في صالحه، حتى لو كان في قوله ما يصرف الأمر إلى موضوع آخر، كأن يشبه، أو يتمثل، ثم يأخذ هذا وسيلة لإيقاف الأمر عند حده.

وفي النص الآتي نجد أن المأمون لم يسلم رغم أن الحجة التي أبداها ابنه قوية، ورغم أن ما فيها من مبرر طبعي مقنع، إلا أن المأمون وجد حجة تجعله صاحب اليد العليا؛ ولعله المأمون نفسه، الذي عندما دعا إلى طعامه، اعتذر إلى أنه سبق إلى الأكل، قبل مجيئه، فقال ما معناه: إن الجلوس على موائد الخلفاء للشرف وليس للشبع، وهذا هو النص، الذي فيه أدب المائدة عند المأمون، وفيه الحجاج:

«قال يحيى بن أكثم:

كان المأمون إذا قصر بعض من يأكل معه أمر

بإقامته عن المائدة؛ ولقد رأيته يوماً وقد أمر أن يقام بابنه العباس عن المائدة، لتقصير كان منه، وقال:

إذا قصرت احتشم غيرك لتقصيرك.

فقال العباس: لم أقصر، ولكني وجدت علّة.

قال: هلا ذكرتها قبل جلوسك على الطعام، فإما احتملناك على التقصير، وإما أعفيناك من الأكل معنا»[1].

***

(١) الجليس الصالح: ٣/ ١٢٨.

الصديق[1]

الصديق له من اسمه نصيب، فالصديق يصدق صديقه في القول والعمل؛ يصدقه في الإخلاص له، ويعتبره كأنه هو، يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، يحفظه في حضوره وغيابه، يتحرى ما ينفعه، ويحذر ما يضره؛ والصديق الحق نادر الوجود، لأن هذه الصفات نادرة، وإذا اجتمعت لإنسان فعلى صديقه أن يحافظ عليه، وأن يعض على هذه الصداقة بالنواجذ، حتى لا تفلت، أو يطرأ عليها ما يفصم عراها، أو يوهي حبالها.

والإخوان كثير، والأعداء أكثر، أما الأصدقاء فقليل، وهم مثل الصقر الحر،

(١) نشرت في المجلة العربية في العدد (٢٥٩) في شعبان ١٤١٩هـ، ديسمبر ١٩٩٨م.

يصعب اقتناصهم إلا بشبكات مودة نادرة، وبجهود مثلها نادرة.

والصديق في فائدته أنه عماد يتكئ عليه الإنسان في هذه الحياة القلقة، وسند لما قد يطرأ من مصائب وكوارث، والحياة فيها من مفاجآت هذه الأمور كثير، وهو المدخر عند النوائب، يخفف من غلوائها، ويتحمل جزءًا من ثقلها؛ ويطرد بمشاركته الهموم التي تتلبّد في سماء روحه؛ ومجرد شعور المرء بأن صديقا معه فيما هو فيه ينفتح باب للترويح عن النفس واسع.

والحديث عن الصديق في الأدب العربي كثير، ويأخذ مناحي عدة، قيلت فيه حكم، وقيلت فيه أشعار، وألفت قصص، ورويت

حوادث، تبين الأوجه المختلفة للصداقة، صادقها وكاذبها، الوافي منها والغادر، القوي والضعيف.

ومن النصوص الواردة عنها في التراث النص التالي:

«قال علقمة بن لبيد العطاردي لابنه:

يا بني، إن نزعتك إلى صحبة الرجال حاجة، فاصحب من إن صحبته زانك؛ وإن خدمته صانك، وإن عركت به مانك؛ مَنْ إن قلت صدَّق قولك، وإن صلت سدد صولك؛ يزاول عنك من رام ونالك.

مَنْ إن مددت يدك يصل مدها، وإن بدرت منك ثلمة سدها، وإن رأى منك حسنة عدها، مَنْ إن سألته أعطاك، وإن سكت عنه ابتداك. مَنْ إن نزلت بك إحدى ملمات الزمان آساك.

مَنْ لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق؛ ولا يخذلك عند الحقائق؛ من إن حاولت حويلا أمرك، وإن تنازعتما منفساً آثرك»[1].

هذا رجل جرب الحياة، وهصر عودها، وعرف العلامات التي تؤكد صداقة الصديق، وتأتي بفوائد من الصحبة والمؤاخاة؛ وهذه الأمور التي عددها هي مجسات اختبار للصداقة، جعلها مناراً نصب عيني ابنه؛ ولن يحتاج إلى مزيد في هذا المجال بعد هذا القول الوافي المنتقى.

وهذه قصة أخرى في هذا المجال:

«قال دعبل لابراهيم بن العباس:

أريد أن أصحبك إلى خراسان، فقال له

---

(١) الجليس الصالح: ٢/ ٢٨٣.

إبراهيم:

حبذا أنت صاحباً مصحوباً إن كنا على شريطة بشار.

قال: وما شريطة بشار؟

قال: قوله:

أَخٌ خَيرٌ مَنْ آخَيتُ أَحْمِلُ ثِقْلَهُ
وَيَحْملُ عَنِّي حينَ يَفْدَحُني ثِقْلِي

أَخٌ إنْ نَبَا دَهْرٌ بِهِ كُنْتُ دُونَهُ
وَإِنْ كَانَ كَونٌ كانَ لي ثِقَةً مِثْلِي

أَخٌ مَالُهُ لي لَسْتُ أَرْهَبُ بُخْلَهُ
وَمَالِي لَهُ لاَ يَرْهَبُ الدَّهْرَ مِنْ بُخْلِي

قال: ذلك لك، ومزية، فاصطحبا»[1].

***

(١) الجليس الصالح: ٢/ ٦٥.

أدب ومشاكسة [1]

خلق الله الخلق من طين، فهم من عنصر واحد، ولكن الله فرق بينهم في الطبائع، فمنهم الهادئ، ومنهم الشرس؛ ومنهم العجول، ومنهم المتأني؛ ومنهم واسع الصدر، ومنهم ضيقه؛ ومنهم من هو مثل لهب النار، ومنهم من هو مثل قطعة الثلج؛ ومنهم من تطيره نفخة، ومنهم من لا تزحزحه الجبال؛ ومنهم من يهمه أي أمر، ومنهم من لا تحركه الدواهي؛ ومنهم الخجول، ومنهم قليل الحياء؛ ومنهم الجواد، ومنهم البخيل؛ ومنهم الكريم، ومنهم اللئيم؛ ومنهم الشجاع، ومنهم الجبان؛ وقد يكون المتناقضان أشقاء توأماً!

---

(١) نشرت في (المجلة العربية) في رمضان ١٤١٩هـ، يناير ١٩٩٩م العدد (٢٦٠).

والعلماء من البشر، وفيهم الاختلاف نفسه، وإن كان العلم يهذب الطباع، ويشذب الغرائز؛ فمن العلماء من هو واسع الصدر، ومنهم خلاف ذلك؛ وتلاميذ العالم هم أول من يدرك طبعه، فيقبل عليه، أو ينفر منه، أو يداريه، ويسايسه؛ وطبيعة العالم قد تحدد مدى استفادة الطلاب منه، إقبالاً، أو إدباراً؛ وقد يبدأ العالم بخلق، فيتغير ذلك منه مع الزمن نتيجة التجربة إن كان في الأمر تحسن، أو نتيجة ظرف مؤلم إن كان في الأمر تردٍّ.

والتلاميذ والمريدون مثل العلماء مختلفون، فطالب متأن، يصبر حتى يأتي الوقت الملائم للسؤال فيسأله، وطالب خلاف ذلك، لا يستطيع أن يصبر، فيسارع بالسؤال في غير وقته، مما يحنق أستاذه، ومن حوله، ويقطع سلسلة

الأفكار؛ وبعضهم، وهذا أردؤهم، يحاول أن يتعالى على معلمه بأسئلة يُحضرها، ويستوعب مقدماً ما فيها من خلاف، ليظهر معلمه بمظهر الجاهل، ويظهر نفسه عالماً؛ وهذا مثل النبتة السامة بين نبتات الغذاء.

وقد عانى العلماء من هذا النوع، على مر العصور، معاناة شديدة، واختلفت طريقة معاملتهم لهم حسب طبيعة المعلم، وحسب حدة الطالب، ونيته؛ ووصل الأمر ببعضهم إلى أن منع الطالب حضور درسه، حتى لا يثيره، ويفسد عليه طلابه؛ وبعضهم لعدم قدرته على ذلك ترك حلقة الدرس مؤقتاً أو دائماً، والقصة الآتية تري مجلساً من مجالس العلم هذه، وتري طالباً واحداً له موقف مع أستاذين، تصرف كل واحد منهما مع الطالب

تصرفاً مختلفاً عن تصرف الثاني؛ والطالب نفسه أدرك آخراً ما لم يدركه أولاً:

«حدثنا إسماعيل السِّدِّي، قال:

كنت في مجلس مالك، أكتب عنه، فسئل عن فريضة فيها اختلاف عن أصحاب رسول الله ﷺ، فأجاب فيها بجواب زيد بن ثابت، فقلت:

فما قال فيها علي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود؟

فأومأ إلى الحَجَبَة، فلما هموا بي حاصرتهم، وحاصروني فأعجزتهم؛ وبقيت محبرتي بكتبي بين يدي مالك؛ فلما أراد أن ينصرف قال له الحجبة:

ما نعمل بكتب الرجل، ومحبرته؟

فقال: اطلبوه، ولا تهيجوه بسوء حتى تأتوني به. فجاؤا إليَّ، فرفقوا بي حتى جئت

معهم، فقال لي:

من أين أنت؟

فقلت: من أهل الكوفة.

فقال لي: إن أهل الكوفة قوم معهم معرفة بأقدار العلماء، فأين خلّفت الأدب؟

قال: قلت: إنما ذاكرتك لأستفيد.

فقال: إن عليّاً وعبدالله لا ينكر فضلهما، وأهل بلدنا على قول زيد، وإذا كنت بين ظهراني قوم فلا تبدأهم بما لا يعرفون فيبدأك منهم ما تكرهه.

قال: ثم حججت من سنتي، وقدمت الشام، فدخلت دمشق، فجلست في حلقة الوليد بن مسلم، فلم أصبر أن سألته عن مسألة، فأصاب.

فقلت: أخطأت، يا أبي العباس.

فقال: تخطئني في الصواب، وتلحن في

الإعراب!

فقلت: خفضتك كما خفضك ربك.

وداخلته الاحتجاج، فمال الناس إليَّ، وتركوه.

وقالوا: أهل الكوفة أهل الفقه والعلم، فخفت أن يندأني (يذعرني) منه ما ندأني من مالك بن أنس؛ فإذا رجلٌ له حلم ودين وزعه عن الإقدام»[1].

وإسماعيل السدِّي، المشاغب هذا تابعي، حجازي، صاحب التفسير والمغازي والسير، وكان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس.

***

(١) الجليس الصالح: ٢/ ٢٧٧.

منذ يوم التأسيس[1]

بعد مرور مئة عام على دخول الملك عبدالعزيز الرياض، يمكننا من موقعنا اليوم في المملكة العربية السعودية، أن نلتفت إلى الخلف، لنرى كيف كان سيرنا، وما قابلناه أثناءه، وما وصلنا إليه اليوم من إنجاز.

دخول الملك عبدالعزيز إلى الرياض كان الخطوة الأولى، الجريئة، المفاجئة، المدهشة، ثُبِّتَ بها المحورُ الذي دار عليه دولاب قيام الدولة الفتية، والمَعْلم الذي انطلقت منه الأحداث حربية في أول الأمر، لتوحيد أطراف البلاد مع المركز، واستتباب الأمن، ثم اجتماعية وسياسية وغير ذلك، حسب ما تطلبته أمور الدولة، وانتظامها في السير، وقبولها في سلك العائلة

(١) المجلة العربية: العدد (٢٦١) شوال ١٤١٩هـ، فبراير ١٩٩٩م.

الدولية، فكان هناك التفات إلى رعاية الأمور الداخلية، والتفات لرعاية الأمور الخارجية، بثقة يدعمها التبصر، والفكر النير، وتقدير لمجرى الحوادث، في فترات مر العالم، بأكمله، فيها بأزمات حادة، مختلفة الطبيعة.

ومع أن الإلتفاتة الرئيسة في أول توحيد المملكة كانت للناحية الحربية، كما تقتضيه طبيعة الأمور في ذلك الظرف، إلا أن هذا لم يشغل الملك عبدالعزيز أن يبدأ وضع الأسس للأمور الأخرى، اجتماعية أو ثقافية أو صحية أو سياسية، فالتفاتته لأمر جليل لا يشغله عن أمر صغير، وما في بؤرة التفكير لا يذهله عما هو على هامشه، كان لابد من تزامن ما هو مهم اليوم مع ما سوف يكون مهماً غداً، ليس فقط في الذهن، ولكن في المعالجة والتنفيذ، وما التفاتته

لإنشاء الهجر، وتوطين البادية، وتركيز الحكومات المحلية، وترتيب الأمور الإدارية؛ بما في ذلك تعيين القضاة، إلا مثلاً من تنوع تصرفه في أول وقت البناء.

وقد أدرك منذ البداية أن أمور الدولة متكاملة، وأن في رعاية جانب ما تقوية لجانب آخر، يوحي له بكل ذلك نظرته إلى وطنه وشعبه، وما الجهود الأولى في فترة التأسيس إلا تمهيد للاستقرار الذي كان يتطلع عليه، وعقد للعزم على بذل الجهد لتحقيقه.

وإذا كان توحيد المملكة جهداً وجهاداً، فإنه واكب العمل العسكري في الهم، وانشغال الفكر، الاقتصاد، وتوفير أسباب المعيشة، وفي هذا مظهر تأكيد على أن الدولة دولة بقاء، وليست إطلالة عابرة؛ وقد ساعده في هذا ما

يعرفه عن مقابلة الشدائد في محيط هو فيه خبير، ولكن الشدة المضنية هي قيام الحرب العالمية الثانية، التي جعلت العالم كله تقريباً في عسرة وشدة، وعانت المملكة، في جملة من عانى، في امور المعيشة، وفي قلة الإمكانات لمقابلة متطلبات البناء والتشييد؛ وكان لابد مع هذا من الحرص على التدبير في الإنفاق، فصار التقشف هدفاً، والتوفير غاية، لجأ إليهما الملك، لمقابلة الضنك، والضغط الخانق، خاصة وأن اشتداد الأزمة لا يُعرف عنه متى ينفك، وقد تزيد العسرة، ويطرأ جديد، فكان الاستعداد هذا مما شغل ذهنه، وكانت الرسوم، ومصادر الزكاة محدودة، وكان الأمل في الله (سبحانه وتعالى) ثم في الأمطار، لما يأتي معها من خصب، يستفيد منه الحاضر والبادي، ويخف

عبء ينوء به كاهل الدولة؛ ومرت السنوات ثقيلة وئيدة، ووطأة الحرب تزداد، وميادينها تقترب، وأثرها يتضاعف، وكان الحجاج قبلها يأتون بأعداد وفيرة، فيأتي معهم بعض الازدهار، ولكنهم أثناء الحرب تضاءلوا، ومن جاء منهم أصبح عبئاً على الدولة، أضيف إلى ما على كتفيها من أعباء.

هذا الظرف الطارئ والقاسي جاء عندما بدأ التطلع في آخر عشر الخمسينات إلى نشر العلم، وتعميم الصحة، وإسداء الخدمة الاجتماعية، فأبطأ السير، وحدَّ هذا من الانطلاق، مع الحاجة الماسة إلى تهيئة المتعلمين لحمل العبء، كل في حقله في التنمية، لدفع العجلة، وتأكيد الاستقرار؛ فأثر هذا على فتح المدارس، ونشرها، وتطويرها، وعلى إنشاء المرافق الصحية بأنواعها،

وما يتطلبه الطب الوقائي والعلاجي، والتوعية في هذه المجالات.

فلما انجلت غمة الحرب العالمية، وأنعم الله بتدفق البترول، جاء الفرج، وأمكن الاستفادة من الثروة، للإنطلاق في برنامج الاصلاح في جميع جوانبه، فانتعشت البلاد، وبدأت تتلمس طريقها في سبيل البناء والتشييد، وكان من أبرز الجوانب التعليم والصحة، والجيش وتنظيمه، ومثله الأمن العام في تنظيمه، وترتيبه، وتدريبه، وكان مرور الأيام بعد ذلك يضيف لبنات جديدة على الأساس الذي أُحسن وضعه.

ويمكن إعطاء مثل للمعاناة والمعالجة والتطلع بالتعليم، والخطو الذي خطاه في طريق واضح ومدروس، في ضوء الاحتياج والإمكانات المتاحة حينئذ، سواء كان ذلك في المال أو في

الرجال؛ وقد نما التعليم، بتوفيق الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم بالرعاية والالتفاتة الحانية، فالمدارس فتحت، وعممت، واكتملت مراحل التعليم فيها، وساعد على هذا إقبال الناس على التعليم، مما سهل الأمر على القائمين عليه من جهة، ومن جهة أخرى أخذوا يلهثون خلف طموح الناس وتطلعهم، مما أوجب أن يكون هناك خطط وقتية، وخطط ثابتة للمستقبل، ما لبثت البلاد أن شهدت تحققها، وأصبح ما كان صعباً بالأمس سهلاً اليوم بعون الله، ثم بالعزم والتصميم والاستفادة من الإمكانات وبذل أقصى جهد ممكن، وجاء وقت كان يفتح كل ثلاثة أيام مدرسة، وتبعت المدارس الناس في مدنهم، وفي قراهم، وفي مضارب البادية، ونشطت مدارس تعليم الكبار، ومدارس محو الأمية، لتدارك ما فات، وإكمال ما نقص،

وسرعان ما أصبح التسابق لطلب العلم على أشده، وشغل الناس الشاغل، إذ لم يعد الجري خلف توفير المعاش هو المهم، كما كان في الماضي، فالمعيشة مع الرخاء توفرت، وأصبح غذاء الفكر هو المبتغى، ونور البصائر هو المطمح، ساعد على ذلك استتباب الأمن، الذي أصبح مسؤولية الدولة الأولى، ففي ظله ـ بإذن الله ـ يزدهر كل جانب من حياة الناس ومعاشهم.

ولأن التعليم حجر الزاوية وقطب الرحى، في التنمية بُذِلَ الجهد في التغلب على أي صعوبة تبرز، فلكثرة المدارس المفتوحة، وقلة المدرسين استعين بأعداد كبيرة من البلدان العربية الشقيقة، التي سبقت في هذا الميدان، واستمر هذا لعدة سنوات، والمسؤولون يبذلون الجهد لتهيئة المدرس السعودي، ليحمل العبء، ويساهم في خدمة

وطنه، في حقل من أشرف الحقول؛ وأول خطوة أتخذت كانت إنشاء معاهد للمعلمين، تدرجت في المستوى في حدود القدرة، وزاد عددها تدريجاً، وتنوعت منهجا، وإشرافاً، وبقي تطويرها، ونشرها هدفاً أمام المسؤولين، لم يقفوا دون تحقيقه، بعد سنوات تعد قصيرة.

ووصل التعليم، والعناية به، إلى مرحلة كان لابد معها أن تفكر الدولة في إنشاء الجامعات، فالجامعة تاج المراحل التعليمية، وستقابل الطلب على التعليم العالي، بعد أن كثر خريجو المرحلة الثانوية، ولم يعد من السهل إلحاق عدد كبير منهم بالجامعات خارج البلاد؛ فأنشئت أول جامعة، تلتها ثانية، ثم ثالثة، حتى وصل عدد الجامعات اليوم إلى ثمان جامعات، يتبعها كليات ألحقت بها في مناطق بعيدة، وستكون نواة لجامعات في تلك

المناطق.

والمردود الذي جاء من الجامعات على البلاد وعلى التنمية أكد صواب المبادرة التي اتخذها المسؤولون بإنشاء الجامعات، وتعددها.

وقبل الجامعات جاءت قفزة عالية، عدلت الكفة، وفتحت بابا فيه الخير والنماء، وذلك بإنشاء تعليم البنات، ووضع الأمانة هذه في يد رئاسة عامة له، روعي فيها ما يُطمئن على أن هذا المشروع سيكون في أيد أمينة، وتبين بعد إنشاء هذا المشروع التعليمي الضخم أن الأنفس كانت عطشى، فكثر الورود على النبع الصافي، وتزاحمت الأفواج عليه، وفي مدة قصيرة صعد إلى أعلى درجات التعليم، فتقاربت أعداد الدارسات مع أعداد الدارسين، وتقاربت أعداد المعلمات مع أعداد المعلمين، وأعداد المدارس مع أعداد

المدارس، وأنشأت الرئاسة العامة لتعليم البنات الكليات، لتكتفي ذاتياً بما تخرجه، وتستغني به عن الاستعارة ما أمكن.

وثمرة هذه الجهود في المجالات المتعددة للتعليم تـُرَى سنوياً فيمن يتخرج، ويدخل مجال التعليم بكفاءة واقتدار، أو يدخل معترك الحياة، خادما بلاده في الحقل الذي يتقن العمل فيه. والتركيز على التعليم منذ البدء كان لهذه الغايات، وقد استوى على سوقه في فترة قصيرة إذا قيست بحياة الأمم، وكان سببا ـ بإذن الله ـ في نجاح الجهود لخدمة التنمية في جوانبها المتعددة.

وبعد فترة من بدء التعليم الرسمي، وتوسعه، دخل الميدان عنصر جديد، وهو التعليم الأهلي، فعضد ما هو قائم من مدارس حكومية، وانتشر هذا النوع من التعليم في المدن الكبرى، واستفاد

منه المواطن والوافد، ووصلت بعض هذه المدارس إلى أعلى المستويات في التعليم، مما أوجد إقبالاً عليها، وشجع على فتح مدارس أهلية ذات مستوى عال في الأداء والبناء، والتأثيث، وكان لتشجيع الدولة لهذه المدارس، بما في ذلك الإعانة التي خصصت لها عن كل طالب يلتحق بها أثره الواضح؛ فتطور التعليم الخاص في هذه الفترة أدى إلى فتح المجال الآن لافتتاح كليات أهلية تلبي حاجة القطاع الخاص، وغيره، في جوانب التنمية المختلفة.

هذا بعض القول عن التعليم، وهي صورة مشرقة، تدعو إلى الفخر، وتزيد في الثقة في المواطن، في لحمته مع قيادته، في إطار تناغم بين التخطيط والتنفيذ؛ والتعليم وهو أسّ في جوانب التنمية المختلفة يمكن أن يؤخذ مثلا لبقية الجوانب

منها، مثل: الصحة والعناية بها، إذ بدأ الأمر فيها محدوداً، تحكمه القدرة والإمكانات، ولم يكن هناك إلا مستشفى واحد في مكة المكرمة، والإقبال عليه محدود، لضعف الوعي حينئذ عند الناس، وعدم الثقة في الطب الحديث، وتلمس الأسباب للتشكيك فيه، والنفور منه، وأذكر أن رائحة المطهرات في المراحيض والممرات في المستشفى، كانت تُكره، وتتخذ حجة في النفور منها، ومن نفر من شيء تلمس الأسباب لمحاربته، أو على الأقل تجنبه؛ وكان الطب الشعبي راجح الكفة، لما له من دعاية بين الناس، وقبول لكل ما يقال عنه من محامد، رغم أن بعضها أبعد ما يكون عن الحقيقة، ومن أحب شيئاً، أو ألفه، أغمض عينيه عن عيوبه، ولو كانت مثل الجبال.

ثم انتشر الوعي الصحي بين المتعلمين،

وتوجب أن تتبع ذلك وفرة في المرافق الصحية، أمكن منها توفر المال بسبب تدفق البترول، وتحسن الجانب المالي والاقتصادي، واستمر ازدياد المستشفيات وتعميمها، وكذلك المستوصفات والمراكز الصحية، وتلا ذلك إنشاء مستشفيات متخصصة بمستوى عالمي، بعضها أنشأته جهات حكومية غير وزارة الصحة، لما تطلبه الأمر من وجود مثلها، وقد اختصت بهذه المستشفيات الجهات العسكرية، لطبيعة عملها. وواكب كل هذا حرص من الدولة على تهيئة مواطنين ليعملوا في هذه المرافق في مجالاتها المختلفة، وتطلب هذا تدعيم كليات الطب في الجامعات، وسرعان ما بدأت تؤتي ثمارها.

والحديث يطول فيما لو أردنا أن نصف التطور في المرافق المختلفة منذ دخول الملك عبدالعزيز

الرياض، فكل مرفق يحتاج إلى صفحات وصفحات، لا يشفي في معرفة جوانبه إلا الرجوع إلى ما كتبه القائمون على هذه المرافق من وصف لتدرج العمل فيها، ووضعها، وما تبينه الإحصاءات من تحرك للأمام مدهش، فالمطارات والموانئ والطرق والمؤسسات والدوائر الحكومية، ونشاطها في حقولها المختلفة وما قام بحمله القطاع الخاص، أمور لها من الحق ما لغيرها من وجوب إلقاء الضوء على جوانبها، لو سمح المجال. .

. . والله المستعان. .

***

العمامة فوق الهامة [1]

لكل أمة في اللباس عادات وتقاليد، قد تتفق معها فيها أمة أخرى، ولكن الغالب أن لكل أمة لباسها الذي يتناسب مع حياتها، تبلور مع مر السنين، حتى أخذ الشكل الذي ارتضاه الجيل، في كل زمن مرت به هذه الأمة.

واللباس في أي أمة لم يبق جامداً لا يتغير، إلا إذا كانت أمة منعزلة، وتغير المجتمع فيها بطيء أو معدوم، تبعاً للحياة التي تحياها، سواء كانت أمة رعي، أو أمة زراعة؛ أما الأمم الكبرى والمتصلة، تأتي غيرها، ويأتي غيرها إليها، فهي تقتبس ويقتبس منها؛ ويصل أمر اللباس من التغير ما يجعل أهل القبور لو قاموا من قبورهم، ورأوا ما عليه

(١) نشرت في المجلة العربية، العدد: (٢٦٢)، السنة: ٢٣. ذي القعدة ١٤١٩هـ، مارس ١٩٩٩م.

أحفادهم من لباس لدهشوا .

ولباس الرأس من أهم أجزاء اللباس ، وله شأن في كل أمة ، وهو يلعب دوراً كبيراً في حياة المجتمع ، سواء في تمييز طبقة عن طبقة ، أو تمييز فئة عن فئة ، أو إظهار الفرق في السن ، أو في المقام ، فقد يكون للحكام لباس ، وللقضاة لباس ، وللشرط لباس ، وللعسس لباس ، وللصغار لباس ، وللكبار لباس ، أما النساء فهن أيضاً فئات في اختلاف اللباس ، وإن كان هناك خط عام تقف عنده كل امرأة .

ولعل المحيط أحياناً يلعب دوراً مهماً في تقرير لباس الرأس ، فالتجار ، وهم في وضع يسمح لهم بأن يلبسوا غطاء للرأس لا يحتاجون إلى أن يثبتوه جيداً ، لأنهم لا يأتون بعمل شاق ، يخشون معه أن يقع لباس الرأس ؛ والبلاد التي تشتد فيها حرارة الشمس يحتاج الرأس إلى أن يُحمى حماية

تامة ، فلا يتعرض لحرارتها ؛ والبلاد التي هي عرضة لسقوط الثلج تحتاج إلى نوع قاس لا يؤثر فيه البلل ، ويكون مساعداً على دفء الرأس ، وحمايته .

ولا أنسى كيف احتضر الطربوش في أواخر أربعينات الميلاد في مصر ، مما هيأ لالغائه رسميا بعد ذلك ، وهو أمر مؤسف ، إذ لم يحل محله لباس للرأس يمثل مصر بحضارتها وماضيها .

وقد جاء الاحتضار بصور عدة إحداها عندما كان طلاب دار العلوم لا يسمح لأحدهم أن يدخل من باب الكلية بدون طربوش ، وكان باب غرفة العميد بالمرصاد أمام مدخل الكلية ، فكان الطلاب يستعيرون طربوش عم محمد البواب ، فيدخلون ، ثم يرسلونه له بعد ذلك ، ليستفيد منه طالب آخر .

وقبل ذلك بسنوات اجتمع طلاب دار العلوم ، وكانوا عادة يأتون من المعاهد الأزهرية في الأرياف ،

وعليهم العمائم والقفاطين، فتمردوا عليها، وتآمروا بينهم، فلبسوا تحتها البدل الإفرنجية، ثم فجأة جمعوها (العمائم والقفاطين) في حوش الكلية وأحرقوها، وكانت مفاجأة كبرى، وكانت جنازة لم تشيع باللطم والعويل!!

ولعل فرحة المدرسين المكتومة، كانت أكبر من الطلاب، لأن هذا يميزهم عن الأزهر وطلابه، إذ كانوا يبتعدون تدريجاً عن الأزهر، رغم أنهم كانوا من معاهده، ولكن الاقتراب من الانضمام إلى جامعة الملك فؤاد، حينئذ، فيه من الأغراء ما فيه.

ونعود للعمائم، وهي في مراحل من حياة العرب محل فخرهم واعتزازهم، وإكرام العمامة أمر مقدر، وإهانتها لها عواقب وخيمة، وكان الذي لا يلبس عمامة منتقداً، ولا تقبل شهادته.

والصورة التي رسمها أبو الأسود الدؤلي للعمامة تعطي فكرة عن مقامها عند العرب في زمنه:

«ذكر أبو الأسود الدؤلي العمامة فقال:

هي جُنَّة في الحرب، ومكنة في الحر، ومدفأة في القر، ووقار في الندي، وزيادة في القامة، وتعظيم للهامة، وهي تعد من تيجان العرب»[1].

***

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٧.

الحِكَم وضياؤها[1]

للحِكَم ضياء، وهي تأتي من عقل نير، ومن تجربة عميقة، وتبصر متأن، وتدبر مستقصٍ؛ وتقديرها يأتي من عقل مماثل في الضياء، وحسن الاستقبال؛ ويأتي ممن يعرف القول الثمين، والفكر الناصع؛ والحِكَم تأتي واسطة العقد بين الأقوال، تأتي بالحُكْم الفصل، والنتيجة الحاسمة، لأنها في القول زبدة، وفي الرأي خلاصة، ومن الفكر جوهرة.

والأمم المتحضرة تنتشر في أقوالها الحكمة، تعضدها الأمثال، ويتقبلها الناس بالتسليم المتناهي، والتطبيق لما رمت إليه، وتنفيذ ما دلت عليه؛ وبهذا تستقيم للناس أمورهم التي

(١) نشرت في المجلة العربية: العدد (٢٦٣) ذي الحجة ١٤١٩هـ، إبريل ١٩٩٩م.

تمسها ؛ والأمم تقاس حضاراتها بما تركت من نتاج فكري ؛ والحكمة خير نتاج ممكن أن يقدمه عقل الفرد للمجتمع ؛ بقدر ما تتوافر أقوال الحكمة في أدب أمة ، تحتل هذه الأمة منزلتها بين الحضارات ؛ وبقدر ما تنتشر في مجالات القول والفكر المختلفة ، تسبق غيرها من الأمم التي دخلت الحلبة .

والحكم في اللغة العربية لا حدود لعددها ، ولا حصر للمجالات التي لمستها ، يكاد كل حقل من حقول التفكير أو العمل يشتمل على أعداد من أقوال الحكمة ، مما فيه تنوع متعدد ، ويلمس جوانب هذا الحقل بما يدهش القارئ أو السامع ، وبعض المتبحرين في دراسة الأدب العربي يستطيع لو أراد أن يجعل من أقواله حكماً يستشهد بها فيما يريد أن يعرضه ، أو يُقنع به .

ولما تأتي به الحكمة من تأثير أصبح لها سوق رائجة في الأقوال والكتابة، ويُحلَّى بها جيد الكلام في الأقوال النبيلة من خطب ومراسلات، وتآليف.

ولصفاء ذهن العرب نتيجة صفاء بيئتهم، وارتفاع مستوى الخلق في صحرائهم، أو في مستقراتهم، احتلت الحكمة في أقوالهم موقعاً مكيناً، يعطون الحكمة ويقبلونها ممن يعطيها؛ ولهذا كان تقبلهم لما وجدوه من الحكم في آداب الأمم، التي اعتنقت الإسلام، سريعاً وشديداً، فزادت الشمعات المضيئة في هذا الجانب؛ وترادفت الحكم في المعنى الواحد، وأصبح هناك تمازجاً في الأفكار بين ما هو أصيل في اللغة العربية، وبين ما هو مستضاف، ومع تقدم الوقت، وهضم الناس للحِكم الوافدة، وكثرة الاستشهاد بها، أصبح من الصعب على غير المتخصص أن يفرق بين

النوعين.

ولنعرف مدى تغلغل الحكم في أقوال الناس وأفعالهم، خاصة عندما تصاغ في شعر يسهل حفظه، ليسهل تناوله، والاستشهاد به، نأتي بأبيات للإمام الشافعي، تتابعت فيها الحكم، وشع من كل حكمة ضياء الصدق، وجمال الحقيقة، وهذه هي الأبيات:

دَعِ الأَيَّامَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ
وطِبْ نَفْسَاً إِذَا حَكَمَ القَضَاءُ
ولاَ تَجْزَعْ لِحَادِثَةِ اللَّيَالِي
فما لِحَوَادِثِ الدُّنْيا بَقَاءُ
وكُنْ رَجُلاً عَلَى الأَهْوَالِ جَلْداً
وشِيمَتُكَ السَّمَاحَةُ والوَفَاءُ

وإنْ كَثُرَتْ عيُوبُكَ في البَرَايَا

وسَرَّكَ أنْ يَكُونَ لَكَ غِطَاءُ

تسَتَّرْ بِالسَّخَاءِ فَكُل عيْبٍ

يغَطِّيهِ كَمَا قِيلَ السَّخاءُ

ولاَ تُرِ لِلأَعَادِي قَطُّ ذُلاً

فإنَّ شَمَاتَةَ الأعدَا بَلاَءُ

ولاَ تَرْجُ السَّمَاحَةَ مِنْ بَخِيلٍ

فمَا فِي النَّارِ لِلْظَّمآنِ مَاءُ

ورِزْقُكَ لَيْسَ يَنْقُصُه التَأنِّي

ولَيْسَ يَزِيدُ في الرِّزقِ العَنَاءُ

ولاَ حَزَنٌ يَدُوْمُ وَلاَ سُرورٌ

ولاَ بُؤْسٌ علَيْكَ وَلاَ رَخَاءُ

إِذَا مَا كُنْتُ ذَا قَلْبٍ قَنُوعٍ
فَأَنْتَ وَمَالِكُ الدُّنْيَا سَوَاءُ
وَمَنْ نَزَلَتْ بِسَاحَتِهِ المَنَايَا
فَلاَ أَرْضٌ تَقِيْهِ وَلاَ سَمَاءُ
وأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ وَلٰكِنْ
إِذَا نَزَلَ القَضَا ضَاقَ الفَضَاءُ
دعِ الأَيَّامَ تَغْدِرُ كُلَّ حِينٍ
فَمَا يُغْنِي عَنْ المَوتِ الدَّوَاءُ(١)

***

(١) ديوان الشافعي: ٤٦.

جـادة الأفكـــار[1]

يفكر إنسان في أمر، فيعبر عنه، ويفكر بالأمر نفسه آخر، قد يكون في بلاد بعيدة، ولا صلة بين الإثنين، فيعبر عنه بمثله، ولكن الفكرين ركبا جادة واحدة، أوصلتهما إلى نتيجة متماثلة؛ والمتفكر في الأمر يجد أن هذا يأتي نتيجة أن كلا منهما وضع قدمه على أول الجادة، فحكمته علاماتها، ومنعته أن يخرج عنها يميناً أويساراً، حتى أوصلت كلا منهما إلى النهاية المتماثلة.

ويكثر مثل هذا في أقوال الناس العابرة، وفيما يكتبه الكتاب، وفيما ينشده الشعراء، ويبقى التساؤل ـ حسب النص ـ فيما إذا كان

(١) نشرت في المجلة العربية: العدد (٢٦٤) في محرم ١٤٢٠هـ، الموافق ١٩٩٩م

ما حدث أحياناً هو توارد خواطر ، ووطء جادة واحدة بالصدفة ، أو أن أحدهما أخذ من الآخر ، ويعتمد البت في الأمر على كثير من العوامل ، بعضها يخص القائل - أيا كان متكلما ، أو كاتبا ، أو شاعراً - وبعضها يخص المقول أو المكتوب أو المنشد، وتباعد أحد الشخصين عن الآخر ، واحتمال اتصالهما عن بعد ، أو معرفة أحدهما بإنتاج الآخر وارد؛ والدراسة المتفحصة ، المتأنية ، المتجردة ، قد توصل إلى الحكم اليقين ، وقد تقترب من ذلك ؛ وقد تبقى النتيجة بعيدة عن التقرير ، نائية عن الحكم القاطع .

وبعض النتائج تؤكد أن الشاعِرَين، أو الكاتبين، أو القائلين، أو الفاعلين، لم يأخذ أحدهما من الآخر، وأن فكر كل واحد منهما ضرب على الطريق نفسه، لأن هناك ما مهد

لهذا، دون أن يعلم أي منهما بما عليه الآخر؛ وقد يكون هذا طبعيا، لأن أسبابه تهيء ذلك، كأن يدرس إثنان أمراً إسلامياً، يتصل بالفكر، فيصلان إلى نتيجة واحدة، أدى إليها بدء واحد، ومعالجة واحدة، وقد تُبين نتيجة الدراسة أن أحدهما أخذ من الآخر بإصرار، وقصد، وأنه عمّى عن ذلك بالسكوت، أو تغيير بعض المعالم، ولكن بقي من المعالم ما يفضح الآخر، ويبرهن على ذلك بالمأخوذ؛ وهذه هي السرقات الأدبية، وما أكثرها، وهي تختلف حدة وضعفا؛ وقد أشار الكتاب إلى كثير منها عرضا، وهم يمرون بها فيما يعرضونه من أدب، وقد غالى بعضهم في الشك، حتى إنه اقتسر بعض الأحكام، وأدخل في السرقات ما ليس منها.

ومن الأمور المحيرة الشعر الأتي الذي ساقه الجاحظ، وله شبيه من العصر الأموي قاله الوليد بن يزيد، وذُكر في ترجمته في الجزء السابع من الأغاني (دار الثقافة)، وهذه هي الأبيات التي ساقها الجاحظ:

«أنشد الكسائي كلاما دار بينه وبين بعض فتيان البادية، فقال:

عجَبٌ مَا عجَبٌ أَعجَبَنِي
مِنْ غُلاَمٍ حَكَميٍّ أَصُلاَ
قلْتُ هَلْ أَحْسَسْتَ رَكْبَاً نزَلُوا
حضَناً مَا دُونَهُ، قال: هلا
قلْتُ: بيِّنْ مَا هَلاَ؟ هَلْ نَزَلُوا
قالَ: حَوْباً، ثُمَّ وَلَّى عجِلاَ

لسْتُ أَدْرِي عِنْدَهَا مَا قَالَ لِيْ
أنعَــمْ مَا قَــالَ لِي أَمْ قَــالَ لاَ
تِلْكَ مِنْــهُ لُغَــةٌ تُعْجِبُنِــي
زادَتِ القَـلْبَ خَبـالاً خَبَـلاَ[1]

أما ما قاله الوليد بن يزيد فهو :

خَــبرَّوُني أنَّ سَــلْمَى
خرَجَت يَــوْم المُصَــلَّ
فَــإذَا طَــيرٌ مَلِيــحٌ
فَــوْقَ غُصْــنٍ يَتفَــلَّ
قلْتُ : مَنْ يَعْرِفُ سَلْمى
قَــالَ : هَــا ، ثُــمَّ تَعَــلَّ

(١) البيان والتبيين : ١/ ١٦٤ .

قلْـــتُ : يَا طَـيرُ ، ادْنُ مِنّـي
قــالَ هَــا ، ثُــمَّ تَــدَلـَّى
قلْتُ : هَلْ أَبْصـرتَ سَلْمى
قــالَ : لا ، ثُـمَّ تَــوَلـَّـــى
فنكـا فـي القلَــبِ كَلْمـــاً
باطِـــناَ لـمَّــا تَعَــــلَّ (١)

أكاد أجزم أن أول من قالها هو الوليد بن يزيد ، وأن الفتى الأعرابي قد سمعها ، وأراد أن ينسج على منوالها ، فأخفق في التقليد ، وأخفق في إخفاء السرقة ، وأبيات الأعرابي ركيكة ، مما يشكك في الرواية أصلا ، ولعلها منحولة على الأعرابي والكسائي .

---

(١) الأغاني : ٧/ ٣٦ .

«ســوا... ســوا»[1]

نعاني في بلاد العرب من لغة الوافدين من غير العرب، فنحن لا نعرف لغة بعضهم، وبعضهم لا يعرف لغة مشتركة يمكن التفاهم معه فيها مثل اللغة الإنجليزية لمن يعرفها منا؛ فيضطرهم الأمر إلى التحدث باللغة العربية حديثاً «مكسراً»، يحاولون فيه أن يقتربوا، بقدر طاقتهم، إلى ما يُفْهِمْ مستمعهم المقصود؛ فأحيانا لا يزيد الأمر عن كلمات ترص، يؤمل أن ينفع ترتيبها وتتابعها في إفهام المقصود.

وفي محاولة الإفهام، ومع قلة المخزون من المفردات، تتكرر كلمات بعينها لا يتعدونها، ومنها كلمة «سوا، سوا» فهي لا تعني ضرورةً ما

(١) المجلة العربية: العدد (٢٦٥)، صفر ١٤٢٠هـ، يونيو ١٩٩٩م.

يعنيه العربي حين يقولها، ولكن لها مدلولا أوسع في نظر هؤلاء الوافدين، وهي نجدة تسعفهم في كثير من المدلولات، وهي حاضرة، ومستعدة أن تطيع للإتيان بها عدة مرات في الجملة القصيرة، وما عليك من الآن إلا أن تلاحظ هذا.

وخير من يفهم هؤلاء الوافدين هم الأطفال، وخير من يعاني من لغتهم هم الأطفال، فالوافد يعرقل تقدم الطفل في لغته، والطفل يساعد الوافد لأنه ينزل إلى مستواه، ويتلاقى الإثنان في محطة مريحة، في منتصف الطريق، تهادنا بينهما على أنها ملتقى مجز للفهم والإفهام! «فأنت ما في يجي»، «وأنت يروح سياره سوا سوا» من أفصح الجمل بين الشريكين، ولسان مبين بين الطرفين، ولو دَخَلَتْ كلمة فصيحة طُردت لأنها متسللة، معتدية!

وقد لاحظت على طفلة على وشك أن تكمل السنتين، ومربيتها وافدة من إحدى مدن الشرق، وفي تلك الديار عندما يتحدثون يهزون رؤوسهم، بطريقة منتظمة، تلفت النظر؛ وقد أتقنت الطفلة الحديث، وهز الرأس، وكأن الحديث صورة، وهز الرأس إطارها!

وأمر اللغات وتعلمها فيه طرائف، تكاد لا تحصى، وتتنوع بتنوع الناس واللغات، فإذا كان هناك غرائب عند الوافدين للعمل، فهناك عجائب لمن يذهبون ليتعلموا لغة ما؛ وأذكر أن صديقا جاء إلى لندن قبل خمسة وثلاثين عاما، وأحب أن يتعلم اللغة الإنجليزية، ولم يكن جاداً، لأنه لا يبذل جهداً، وسكن مع عائلة إنجليزية، وزرته بعد سكنه معها بأسبوعين، فوجدت أن العائلة تعلمت من اللغة العربية

أكثر مما تعلم هو من اللغة الإنجليزية ؛ ووجدت أن حرص العائلة على تعلم اللغة العربية ليس حباً في اللغة العربية ، أو توقع حاجة لها ، وإنما لتتمكن من خدمة هذا الطالب ، وتلبية رغباته الضرورية ، من أكل وغيره!

وأمر غير العربي يجد نفسه في مجتمع عربي ، يحتاج فيه إلى أن يتعلم اللغة العربية ، ليس جديداً على المجتمع العربي، ووصل إلى قمته عندما توسعت رقعة أرض الإسلام، ودخلت الأمم المجاورة غير العربية ، وقد أثر هذا تأثيراً كبيراً على اللغة العربية الفصحى ، مما أدى إلى وضع القواعد والنحو لحمايتها ؛ ووضعت المعاجم ، ودون الأدب ، نجدةً للغة ، إلاّ أن الاكتساح كان قوياً، فقد تزوج العربي من غير العرب ، وزوجته لا تعرف شيئاً من اللغة العربية ،

فانعكس هذا على أبنائهما، فلم يسلم من لغة قوم أبيهم إلا نصف المحصول؛ ولولا أن الله يتدارك الأولاد بأندادٍ لهم يلعبون معهم، ويدرسون معهم، لكانت الكارثة أدهى.

لقد لاحظ أدباء العصر العباسي هذا، ودونوا عنه بعض الملاحظات؛ والجاحظ من الأدباء الذين نجحوا في رصد مجتمعهم، وتدوين ما يرصدون في كتبهم المختلفة؛ والجاحظ له أسلوب جذاب، تختلط فيه القوة، مع خفة الدم، مع القدرة على تجنيب القارئ الملل، بكثرة الاستطراد، والحرص على التنويع.

والجاحظ يميل إلى الفكاهة، مما يجذب القارئ، ويحسن أسلوبه بإضفائه صوراً بديعة، يُعتقد أحيانا أنه يخترع أمثلتها، ويُغالي في وصف أفعال أشخاصها، والنص الآتي من النصوص

التي يصف بها تعبير أحد غير العرب ممن دخلوا المجتمع الإسلامي:

«وقد فهمنا معنى قول أبي الجهير الخراساني النخاس، حين قال له الحجاج:

أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان؟

قال: شريكاننا في هوازها، وشريكاننا في مداينها، وكما تجيء تكون.

قال الحجاج: ما تقول، ويلك؟!

فقال بعض من كان قد اعتاد سماع الخطأ، وكلام العلوج بالعربية، حتى صار يفهم مثل ذلك:

يقول: شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوهها»[1].

***

(١) البيان والتبيين: ١/ ١٦١.

المعادن وثقافة الشاعر [1]

الشاعر الفحل هو الذي يكمن خلف شعره ثقافة واسعة، وعلم متعدد الشُعب، تثري المعلومات، التي يخزنها في ذهنه، شعره، ويرسم بها قوله؛ أما من يعتمد على الخيال والصور، والأسلوب والأوزان فقط، فهو مثل الذي يعرض جسماً جميلاً متناسقاً، ولكن بدون عقل راجح يتناسب مع هذا المنظر الأخاذ.

ولو قام أحدنا ببحث متقص للشعراء، وحاول أن ينقب عما يكمن خلف أقوالهم، وما يفيض من علم على ألسنتهم، لوجد أن خيرهم من حوى شعره علما وثقافة؛ لأنه مثل العطار، الذي

(١) نشرت في المجلة العربية: العدد (٢٦٦)، السنة: ٢٤ ربيع الأول ١٤٢٠هـ، يوليه : ١٩٩٩مز

حوى دكانه جميع أنواع العطارة، فهو لا يدري متى يأتيه المحتاج لهذا الصنف أو ذاك، وكذلك الشاعر لا يدري متى يحوجه الوزن أو القافية إلى تلك الكلمة، أو تلك اللفظة، أو ذاك التعبير.

ويعجب قارئ الأدب الجاهلي مثلا من ثقافة ذلك الأعرابي، المنقطع في الصحراء، كيف يعرف عن بابل، وعن إيوان كسرى، وعن بعض محتوى حضارة الروم، يستنجد بالكلمة منها في شعره، فتجد أن هذا المكان من البيت لا يمكن سده إلا بهذه اللفظة، أو إكماله إلا بهذه الصورة لملك الفرس، أو امبراطور الروم، أو فرعون مصر؛ ولكنه ذهن الشاعر، صفا فقال الشعر، وصفا فخزن ما يسمع من معلومات، وما يقال أمامه من أقوال عابرة، لم ير فيها غيره ما رآه هو، فنفعته، ولم تنفع غيره.

وعندما جاء الإسلام زادت ثقافة الشاعر العربي، زيادة بالغة، بما جاء من تعاليم العقيدة، وما يجب أن تكون عليه الأفعال، وما يجب أن يسود بين الناس من تصرف يمليه الخلق الحسن، والطبع السليم؛ وسرعان ما انداحت رقعة البلاد الإسلامية، ودخلت المجتمع الإسلامي علوم جديدة، هي حصيلة حضارات مختلفة، لأمم مجاورة، فتح بلادها المسلمون، فأخذوا منهم علومهم، أو دخل أبناؤها الإسلام، ونقلوا إلى مجتمعه ما رأوا مناسبة نقله، فوصل كثير منه إلى ذهن الشعراء في ذلك الزمن؛ وبلغ ذلك قمته في العصر العباسي الأول؛ والمتتبع لما قيل من الشعر، وما دخله من ألفاظ علمية تخص الطبيعة والكيمياء وغيرها، يدهش من مقدرة الشاعر على استيعاب كل ذلك؛ بل إنه سيجد أن ما قدر على

الوصول إليه شعراء تلك الفترة، يعجز عنه شعراء اليوم، وقد درسوا في مدارس منتظمة، فيها مثل هذه العلوم.

وسوف ندهش أن بعض التعبيرات، التي لا تأتي إلا من المتخصصين في العلوم اليوم، كانت معروفة في تلك الأيام معرفة حميمة، جعلت الشاعر يأتي بها في حجةٍ وقف بها أمام شاعر آخر، وجد أنه عضد ما ليس في جانب الحق، والأمر بدأ بما أثاره بشار بن برد، المتهم في عقيدته، من تعضيده لإبليس في أن النار خير من الأرض؛ فجاء صفوان يرد عليه بقصيدة مطلعها:

زَعمْتَ بِأَنَّ النَّارَ أَكْرَمُ عُنْصُراً

وفِي الأَرْضِ تَحْيَا بِالحِجَارَةِ والزَّنْدِ

ثم يستمر في دحضه أقوال بشار وإبليس،

ويعدد خيرات الأرض والبحار، حتى يأتي إلى الأبيات التي تكشف عن ثقافته وعلمه، وهو ما يفاجأ به كثيرون ممن لم يتعمقوا في هذا العصر، وثقافة عصره.

يقول صفوان في جملة ما قال:

وَفِي الحَـرَّةِ الرَّجْـلاَء تلقَـى مَعَـادِنٌ
لَهُـنَّ مَغَـارَاتٌ تَبَجَّـسُ بِالنَّقْـدِ

مِنَ الذَّهَبِ الإبْرِيْـزِ وَالفِضَّـةِ الَّتي
تَـرُوقُ وَتُصْبِي ذَا القَنَاعَـةِ وَالزُّهْدِ

وكُـلُّ فِلِـزٍّ مِـنْ نُحَـاسٍ وَآنـكٍ
وَمِنْ زِئبَـقٍ حَيٍّ وَنُوشَـاذُرٍ يُسْـدِي

وفِيْهَـا زَرَانِيـخٌ وَمَكْـرٌ وَمَرْتَـكٌ
ومِنْ مَرْقَشِيْثَا غيرِ كَابٍ وَلاَ مُكْدِي

وفِيهَا ضروبُ القَارِ وَالشَّبِّ وَالمَهَا
وأَصْنَافُ كِبْرِيْتٍ مُطَاوِلَةُ الوَقْدِ
تَرَى العِرْقَ مِنْهَا في المَقَاطِعِ لاَئحاً
كمَا قَدَّتِ الحَسْنَاءُ حَاشِيةَ البُرْدِ
ومِنْ إثْمِدٍ جَونٍ وَكِلْسٍ وَفِضَّةٍ
ومِنْ تُوتِيَاءٍ في مَعَادِنِهِ هِنْدِي
وفِي كُلِّ أَغْوَارِ البِلاَدِ مَعَادِنٌ
وفِي ظَاهِرِ البَيْدَاءِ مِنْ مُسْتَوٍ نَجْدِ (١)

ثم يستمر في حججه، فيأتي بما على الأرض من أماكن مقدسة، وأماكن مهمة مما يكشف عن ثقافة متعمقة متنوعة، فيدمغ خصمه، ويقضي بحجته على حجته.

***

(١) البيان والتبيين: ١/ ٢٧.

قصص السمر [1]

في الصحراء، عندما تغيب الشمس، وتوضع الأحمال، ويؤوب الرعاة، وتحلب النعم، ويتعشى القوم، يطيب السمر، إما على ضحاح ضوء النار شتاء، أو على نور القمر؛ يتجمع الرجال عند رئيس القبيلة، وتتجمع النساء في مكان يخترنه، ويأتي فريق من الصبيان إلى مجلس الرجال، وفريق إلى مجلس النساء، كل حسب سنِّه، وفريق ثالث يلهو ويلعب حول بيوت الشعر والخيام، حتى يحين موعد النوم، فيأوي القوم إلى مضاجعهم، فيطلق الكلب الذي كان مربوطاً في ساجور، ليُعسَّ طوال الليل، ولينبّه على القادم، إن كان لصاً، أو طالب ثأر، أو متلمس موعد

---

(١) المجلة العربية: العدد (٢٦٧) ربيع الآخر ١٤٢٠هـ ، الموافق أغسطس ١٩٩٩م.

غرام، أو ضيفا يطلب القِري، أو ضالاً قادته رجلاه إلى هذا الحي من الناس.

وفي السمر، تقص القصص، وتحكى الحكايات، وتعدد الأمجاد، وتلقى الأشعار؛ ويتزعم القول واحد، أو أكثر من واحد؛ يقول، فيسمع الآخرون، ويحكي، فيصغي المستمعون، ويقص فينصت الجالسون؛ وهو يروي روايات سمعها من سابقين؛ يزيد فيها أو ينقص، حسب ذوقه، وما تمليه عليه نظرات الجالسين، من استحسان أو استزادة، يركز على جانب من القصة، ويطيل، ويمر بجانب مر الكرام، يرفع صوته بشيء، ويخفض صوته بآخر.

والشعر حلية القول، وشمعة الأحاديث والقصص؛ ولهذا حرصوا على أن يقولوا شعراً

على ألسنة أقوام بادوا، ولغتهم تختلف عن لغة هؤلاء؛ ومع هذا يُقبل القول على أنه حق، وأن السابقين قالوه؛ ولا يخطر ببال أحد أن ينتقد الراوي، أو يشكك في الشعر وقائله؛ ولعل ذلك يعود إلى أن الهدف التسلية، وأحياناً الموعظة، وأحياناً المنافرة، وما إلى ذلك مما يتناسب مع جلسة السمر، وذوق المستمعين.

وآدم هو أبو البشر، ولا يخص العرب وحدهم، وأبناؤه في بقاع الأرض، لهم لغات مختلفة، ومتباينة، ومتباعدة، لو قابل ابن من أبنائه آت من الشرق آخر آتٍ من الغرب لما فهم كلمة واحدًة مما يقول؛ بل إن أبناءه في منطقة واحدة، بعد قرون، لو خرج أحدهم من قبره، لما عرف لغة أحفاده. ومع هذا فقد قال آدم شعراً سلساً، نجد فيه اليوم سهولة ورقة، تساعد على حفظها، رغم أنه قيل أن

آدم قبل قرون قال هذا الشعر ؛ وإبليس أيضاً وضع على لسانه شعر ؛ ورغم الرقة والسهولة ، فالمعاني هزيلة .

وما هذه الأشعار إلا بنات جلسات السمر أوحى بها حب العرب للشعر ، ورغبتهم في حفظه ، وصيانته ، وقد كشف لنا عن نظرتهم إلى الأمر ، وتصورهم لآدم وإبليس ، خاصة في ضوء ما جاء في الدين عن آدم ، أو عن إبليس ؛ وقد ذكر صاحب جمهرة أشعار العرب هذه الأشعار ، وهذه هي ؛ وطبعا عدها أول ما قالته العرب من الشعر :

تغَـيَّرَتِ البِلاَدُ وَمَنْ عَلَيْهَـا
فوَجْـهُ الأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيْـحُ
تغَـيَّرَ كُلُّ ذِي لَوْنٍ وَطَعْـمٍ
وقَلَّ بَشَاشَـةَ الوَجْـهُ القَبِيْحُ

أما ما ينسب إلى إبليس فهذه الأبيات :

تنَحَّ عـنِ الجنَـانِ وَسَـاكِنيْهَا
ففِي الفِرْدَوْسِ ضَاقَ بِكَ الفَسِيحُ
وكُنْتَ بِهَـا وَزَوْجَـكَ في رَخَـاءٍ
وقَلْبَـكَ مِنْ أَذَى الدُّنْيَـا مُرِيـحُ
فمَا بَرِحَتْ مُكَـايَدَتِي وَمَكْـرِي
إلَى أنْ فَاتَـكَ الثَّمَـنُ الرَّبِيْـحُ
ولَولاَ رَحْمـةُ الرَّحْمـنِ أمْسَـى
بكَفِّـكَ مِنْ جِنَـانِ الْخُلْـدِ رِيْـحُ(١)

حتى الملائكة وُضع على ألسنتهم بيت بما يتصوره الناس لائقاً بهم، وهذا هو البيت :

(١) جمهرة أشعار العرب: ٣٩.

لِذُوا لِلْمَوتِ، وابْنُوا لِلْخَرَاب
فَكُلُّكُـمْ يَصِيرُ إلى الذَّهَـابِ[1]

والعمالقة رغم بعد زمنهم إلا أنه قيل على ألسنتهم أبيات بما يعرفه العرب عنهم. وما يتناقلونه عنهم من قصص في سمرهم، وأوقات رحيلهم؛ وبعد:

فهذه الأبيات يجب أن لا ينظر إليها إلا من خلال هذا المنظار.

***

(١) جمهرة أشعار العرب: ٤٠.

خطوة في الإدارة[1]

الإدارة فن دقيق، لأن فيها إدارة الرجال، وإدارة الأعمال، ولابد من المواءمة بين الإدارتين؛ ونجاح المدير هو في إتقان ذلك؛ ويحتاج هذا إلى عقل صاف، وفكر مفتق، وذهن واع، ينتقل صاحبه من جانب من الإدارة إلى جانب، دون إهمال لهذا، أو انشغال بهذا.

والعرب في جاهليتهم لم يكن لهم إدارة حضارية، إلا ما كان في بعض المدن والبلدان والقرى، والتجمعات السكنية المحدودة، ولم تكن هذه تحتاج إلى إدارة معقدة، أو كان في جوانبها ازدحام، أو في عجلتها دوران سريع؛

(١) نشرت في المجلة العربية، بالعدد (٢٦٨) في جمادى الأولى ١٤٢٠هـ الموافق سبتمبر ١٩٩٩م.

كانت الأمور ساذجة إلى حد ما ، وأكثر ما يحتاج إليه القوم الاهتمام بقيادة الجيوش ، وكانت ثابتة المعالم ، ذات نموذج معروف .

لهذا يعجب أحدنا عندما يرى مقدرة كبار الصحابة على إدارة الدولة الفتية التي بدأت تتسع إلى ما كان فوق الطاقة ، ومع هذا أتقنوا إدارتها ، وعلى رأس هؤلاء عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وعماله ، كل على حدة ، جاؤوا بما يبدو أنه كان مفاجئاً لكل من درس تلك الحقبة .

رتبوا عمالهم ، وأوصوهم بما اعتبروه أصلاً من أصول الإدارة في هذا المجال أو ذاك ؛ ورتبوا قواعد على أسس قوية للتفتيش ؛ فاختاروا لهذا الوقت والرجال ؛ وحاسبوا على أساس نتائج الجولات ؛ ومع التفتيش جهاز مساند خفي ، وهو صاحب البريد ، يوافي الخليفة ، بكل دقيقة

وجليلة، هو عين له لا تغمض، وهو أنفه الذي يشم رائحة الخطأ في أول وقوعه قبل أن يستفحل.

ورتبوا القضاة، وجعلوا لهم مكانة تضمن حسن عملهم، وتتناسب مع خطورته وأهميته؛ وجعلوا للقضاء قيمة بحسن اختيار رجاله، مع متابعة ملحفة في تتبع تنفيذ الأحكام، والدقة في ذلك.

وأوجدوا للشرطة صاحبا، يكمل عمل العامل والقاضي، ويعضد عمل صاحب الحسبة وعسس الليل، ويساهم في حفظ الأمن واستتبابه؛ وجابي المال له أهميته ومقامه، وله نظامه الذي أخذه من أحكام موضحة، يسير في هديها؛ والعين عليه، واليد من فوقه، فلا يظلم بزيادة ما يجبي، ولا يهمل في طلب حق الخلافة،

وبيت مال المسلمين .

ونظمت الصوافي والشواتي، ورتبت الجيوش واختير القواد للغزو، ووجهت القبائل للفتوح تحت نظام دقيق، يكفل التنافس، ويحمي من التصادم، فجاء من ذلك فتح مبين، وسع رقعة الخلافة الإسلامية شرقاً وغرباً وشمالاً، حتى وصلت إلى ما لم يكن يحلم به .

وإذا كان الخليفة يختار عماله، ومن هم في مستواهم في الإدارة والحكم، فالعمال يختارون من تحتهم ممن يساعدهم في إدارة دفة الأمور بإتقان، وحسن مردود؛ وقد انصقلت الإدارة مع الوقت، وتهذبت مع التجربة، فجاء منها ما هو منير ضياؤه واضح فيما وصلنا منه في كتب التراث وهذا نموذج منه، نتبين فيه الإدارة المتقنة :

«كان زياد إذا ولى رجلاً عملا قال له :

خذ عهدك، وسر إلى عملك؛ واعلم أنك مصروف رأسَ سنتك؛ وأنك تصير إلى أربع خلال؛ فاختر لنفسك: إنَّا إن وجدناك أمينا ضعيفا استبدلنا بك لضعفك، وسَلَّمتك من معرتنا أمانتك؛ وإن وجدناك قويا خائنا، استهنا بقوتك، وأحسنا على خيانتك أدبك، وأوجعنا ظهرك، وثقلنا غرمك؛ وإن جمعت علينا الجرمين جمعنا عليك المضرتين؛ وإن وجدناك أمينا قويا زدنا في عملك، ورفعنا ذكرك، وكثّرنا مالك، وأوطأنا عقبك»[1].

هذا نص بديع جامع في الإدارة، حدد مدة التعيين في الوظيفة، وحدد الجرم وحدد له العقاب، وذكر الإحسان وحدد له المكافأة؛ وأبان وسائل الاستثناء إذا وصل الإحسان درجة عالية،

(١) الجليس الصالح: ٢/ ١٣٣. وعيون الأخبار: ١/ ٥٥.

فاستحق المرء معه تمديد مدة الخدمة!

ألم يسبق زياد بنظامه هذا نظام الخدمة المدنية عند أهل هذا الزمان؟

***

ضيـــاء العلـــم[1]

ونحن صغار كان أهلنا يحثوننا على أن لا نبقي في الصحن الذي نأكل منه شيئاً، وأن علينا أن نلحس الصحن جيداً، وأنه لا يبقى يوم القيامة في بطوننا إلا «اللحاسة»، فكنا نحرص عليها، مدخرينها ليوم القيامة، وهو يوم نعرف هَوْلَه مما نقرؤه في كتب الدراسة، ومن أفواه الواعظين، وحديث أهلنا؛ وكنا لا نبقي في الوعاء أثراً للطعام، ولو نظر فيه ناظر لظن أنه لم يكن فيه طعام؛ أو أنه غسل غسلاً جيداً بعده.

قد يكون الأساس في هذا الحث جاء بسبب شظف المعيشة، وقلة ما يقدم للفرد، والمدة الطويلة بين الوجبة والوجبة، مما لا يدركه

(١) العدد (٢٦٩) من المجلة العربية، السنة ٢٤، عدد جمادى الآخرة ١٤٢٠ هـ، الموافق: أكتوبر ١٩٩٩م.

الصغير، فإذا لم يكمل صحنه فإن الجوع يقرصه سريعاً، هذا مع نقص التغذية، ومعاناة الصحة؛ ويخشى أن يُتْرَك شيء من الطعام فيها، فيقوموا بحذفه والتخلص منه؛ وفي هذا إسراف، والقوم يرعبهم الإسراف، لقلة ذات اليد عندهم حينئذ.

وتروي النساء قصة، لعلها متخيلة، وهي أن امرأة من أهل المدن زارت بدويّة على طرف المدينة في خيمتها على أثر دعوة سابقة، وقدمت لها طعاماً فيه لحم، وهذا يعتبر غاية في الإكرام، فلما انتهت من الأكل قامت الأعرابية لتغسل الأواني، واعتذرت لصديقتها، لتركها إياها وهي ضيفة، وانشغالها بالغسل، وقالت: المرحوم كان يقوم بهذا، ولما سألتها عن هذا المرحوم، قالت كلبنا «طوقان» الذي أكلنا لحمه الآن، ولا تسل عن حالة الحضرية ولا عن ما حدث لما في بطنها من طعام.

هذه قصة قديمة، لابد أنها مركبة، وتعكس ما كان بين الحاضرة والبادية من عداوة في الزمن القديم، اختفت بعد أن انتشر العلم، وتوحدت فئات المجتمع في بوتقة واحدة.

وقد أوجب الحديث في أمر لعق الإناء نَصٌّ من التراث لمس هذا الجانب، وقد يكون هو الأساس لفكرة أهل نجد في أن لعق الإناء فيه البركة، وأن الأكل بأجمعه يتلاشى، ولا يبقى عند الحاجة إلا ما لعقه الآكل من آخر الإناء، والنص هكذا:

«قال عنبسة بن عمرو الوهبي:

مر بنا عبدالله بن مسعود، ونحن بسرف (موضع)، وهو يريد الحج، فأهدينا إليه إقطاً، وسمناً، ولَبَناً، وزبداً، وطيراً، جاءت بها الرعاة من مسيرة أربعة أيام، فقال:

وددت أني في موضع هذا الطير حيث لا أرى

أحداً ولا يراني، ثم جلس يأكل، وجلست آكل معه؛ فلما فرغ من الأكل جعل يلحس الصفحة، ويلعق ما فيها، فقلت له:

يا أبا عبد الرحمن، إن هاهنا من يكفيك غسلها.

فقال: إن لعق الصحاف يعدل عتق الرقاب»[1].

لقد جعل عبدالله بن مسعود ثمن لعق الصحاف عالياً، ولا بد أن عنده من الأسباب ما يعتمد عليه؛ وقد يكون ورد فيها أثر من الآثار؛ وإذا كان الثمن عند أهل نجد مختلفاً في مظهره، فإنه متفق في ارتفاع القيمة، وغلاء السعر، مع ما قاله عبدالله بن مسعود.

***

(١) الجليس الصالح: ٢/ ٢٧٢.

رمية طائشة[1]

يرمي الإنسان سهماً فيطيش عن الهدف، وينصب شركاً فيفلت الصيد، ويضع كميناً فيخيب أمل الكامن، والسبب أن العمل لم يتقن، ولم تكتمل له عناصر النجاح؛ والنجاح لا يأتي إلا باكتمال عناصره، فإذا نقص أحدها حل الفشل محل النجاح؛ والعمل لا يتقن إذا كان القائم عليه استهتر بمن نصبت له المصيدة، أو إذا تسرع في محاولة الوصول إلى الهدف؛ أو أن العاطفة حلت محل العقل في الترتيب، وقد يكون الطمع أعمى البصيرة، وحجب نور البصر، وقاد إلى الوهم، فخاب الأمل.

وفي العمل يعمله الإنسان، وله فيه هدف،

---

(١) نشر في المجلة العربية، العدد (٢٧٠) في السنة ٢٤، رجب ١٤٢٠هـ، الموافق نوفمبر ١٩٩٩م.

تقف النية عاملا مهما خلف الأعمال ، فإن كانت النية حسنة وأريد بها وجه الله أدت إلى الكسب ، وإن كانت سيئة ، ووراءها أذى خفيا ، فالخسارة أقرب إلى الوقوع .

ومن تتبع أعمال نفسه ، وأعمال من حوله ، يجد أن من الثابت أن العمل الذي بني على نية حسنة ، وأريد به وجه الله ، ونفع خلقه ، لابد أن يوصل إلى الغاية ؛ فإن أخفق صاحبه فَلِنَفْعٍ خفي أراده الله له ، ولابد أن المستقبل يكشف عنه ، أما العمل الذي أراد به صاحبه الانتفاع ، حتى لو كان في هذا ضرر على أخيه المسلم ، فإن الله يحمي من أراد له الوقاية من الشر .

وفي نص من نصوص التراث أراد شخص أن يتقرب للخليفة بغير الحقيقة ، وأن يوهمه بأمر بعيد عَن الواقع ، بل إن مجرد إظهاره فيه إثم كبير ، وتَعَدٍّ

على حق الله ـ تبارك وتعالى ـ في علم الغيب، ومعرفة ما سوف يحدث في المستقبل؛ وهذا رجل مع آخر ادعيا أنهما يعرفان متى سوف يموت الخليفة، وكم سوف يعيش؛ ومثل وحشين كاسرين في غابة ظنا أنهما بهذا قد شلا حركة الضحية، فجاء ثالث ليجهز عليها ويحرمهما منها، فقد كان في مجلس الخليفة جليس آخر رأى أن يكيل للخليفة في أجله كيلاً وافياً، حتى ينال من الحظوة ما لم ينله الآخران.

أخطأ الثلاثة في تقديرهم لعقل الخليفة، وأدى بهم الوهم إلى التوغل في الخطأ، والتمادي فيه؛ وتوهموا أن الخليفة أعجبه ما سمع، أو أهمه وأخافه، وظنوا أنهم سوف يصلون إلى بغيتهم التي كان طريقها النفاق المتدني، ولكن الخليفة خيب أملهم، إذ أعطاه الله نور هداية رد به

وأعادهم إلى موقعهم حيث كانوا فلم تنطل عليه الحيلة، ولم يقع في المصيدة التي نصبوها له، ومن كان مع الله كان الله معه؛ وهذا الخليفة عليه من سربال التوحيد ما كان ضافيا، ومن لباسه ما كان كاسيا.

يكاد المرء لا يصدق أن جليسا للخليفة يصل به الأمر إلى الجهل إلى هذا الحد؛ والمتوقع أن يكون الجليس صادقا، وأن لا يهدي من الأراء للخليفة إلا ما كان ثمينا، ولا يعرض من الأفكار إلا ما يتناسب مع هذا المقام المحتشم، والقصة كما يلي:

«قال حماد الراوية:

كنت عند الوليد يوما فدخل عليه رجلان كأنهما منجمين، فقالا: قد نظرنا فيما أمرتنا به، فوجدناك تملك سبع سنين، مؤيداً منصوراً، تستقيم لك الناس، ويزكو لك الخراج.

قال حماد: فاغتنمتها، وأردت أن أخدعه كما خدعاه، فقلت: يا أمير المؤمنين، كذبا، نحن أعلم بالرواية، والآثار، وضروب العلم، منهما؛ وقد نظرنا في هذا، ونظر الناس قديما، فوجدناك تملك أربعين سنة في الحال التي وصفا.

قال: فأطرق الوليد، ثم رفع رأسه إليَّ،

فقال: لا ما قاله هذا يكسرني، ولا ما قلته يَقُرُّني، والله لأجبين هذا المال من حلِّه، جباية من يعيش للأبد، ولأصرفنه في حقه صرف من يموت في غد»[1].

هذا رَدُّ خليفة على أصحاب عقول متدنية، خاب سهمهم، وطاش نبلهم، وتدارك الله الخليفة، بفضله، فلم يؤمن بما قالا، ولعل ما سبق أن سألهما عنه كان اختباراً لهما.

---

(١) الجليس الصالح: ٢/ ٦٥.

الموعظة في ثوب رشيق(١)

كل مجتمع لا يخلو من أخطاء تشوه أديم وجهه، يسعى المصلحون فيه إلى القضاء عليها، والتخلص منها، بالوسائل التي يرون أن فيها النجاح، والوصول إلى الهدف، وقد يكون التأديب أحد هذه الأسباب، إلا أن المصلح السوي لا يلجأ إلى التأديب إلا بعد استنفاد الوسائل الأخرى التي لا تترك ندوباً في النفوس، أو خدوشاً في الصدور، ومن الوسائل التي يلجأ إليها المصلح بدءًا التلميح، ومحاولة مساعدة الفرد على معرفة عيبه، وإدراك عمق الضرر الذي يحدثه فعله المنتقد، دون لجوء للأسلوب المباشر، وفائدة هذا أنه يعطي الفرد المراد إصلاحه ثقة بنفسه، وأنه

(١) نشرت في المجلة العربية، العدد (٢٧١)، السنة ٢٤ بتاريخ شعبان ١٤٢٠هـ، الموافق: ديسمبر ١٩٩٩م.

كفيء لمعرفة النافع فيقدم عليه، والضار فيتجنبه، وأن غيره يؤمِّل فيه ذلك، ويتوقع منه الإقدام على هذا النهج بنفس راضية، واختيار مطلق، خاصة إذا لم يكن أقدم على الخطأ عن عقيدة، أو إصرار، أو يكون العيب قد توغل في عمله أو في نفسه، وأصبح اقتلاعه صعبا، مما قد يجعل المكابرة أقرب للقبول عند صاحب الخطأ من التسليم لتلميح أو إشارة.

والرسول ﷺ خير معلم، وأبرع هادٍ إلى ما ينفع الناس مما يرضي الله، ويعود عليهم بالنفع دنياً وديناً، وأسلوبه في التربية سام، شامخ في العلو والرقي، والتلميح عنده ﷺ أسلوب ارتضاه لإصلاح الخلل إذا رآه في أمته، وكلماته ذات الوقع النافذ، من بينها قوله ﷺ: «ما بال أقوام»!

هذه الكلمات السحرية تنفذ نفاذ السهم من

الرمية، فتصيب الهدف في كبده، تجعل المخطئ يعرف نفسه، فيثأر من نفسه بنفسه، بإصلاح خلل هذه النفس، وفي ذهنه أن من بين من سمعوا خطبته أو حديثه ﷺ إن لم يكونوا يعرفون المسيء، فإنه إذا لم يقلع فسوف يكشف نفسه، التي حرص الرسول ﷺ أن يوفرها، ويوقرها، ويجنبها الخدش، فكان رحيما بصاحبها أكثر منه؛ وإن كانوا يعرفون فأولى به أن يقلع عن شيء آذى سمع الرسول ﷺ أو بصره، مما يخل بالدين، فيؤذي المجتمع، ويفتح باباً للقدوة الشريرة.

والعلماء الأدباء وجدوا طرقاً للإصلاح، من بينها أن يركبوا قصة طريفة جذابة على أحد الأشخاص المعروفين لجميع الناس، ويتخذون هذا الشخص مشجبا يعلقون عليه ما سوف يضعونه في المجتمع بهدف إصلاح عيب، أو حث

على فضيلة؛ وقد يكون هذا المشجب النبيل خليفة، أو إماما، أو عالما مشهوراً، أو رجلاً عرف عنه السبق في أمر من أمور الحياة، ذكاءًا، أو كرماً، أو شجاعةً، أو حلماً، وقد يكون في القصة أكثر من شخص؛ فإذا أُتقِن هذا الجانب لم يبق إلا حبك القصة، لتأتي بالمراد منها كاملاً.

والقصة الآتية ترمي إلى فضيلة، وقد لا تكون القصة حدثت إلا في ذهن الأديب الذي صاغ كلماتها، واختار ممثليها، وأوجد المسرح اللائق بها، والقصة عن الحلم، وتبين ثريات إضاءته، وقد أجاد الأديب إجادة تامة، من جميع النواحي في سبكها، فهناك نزاع على السلطة، ثبت المأمون فيها، ولابد أن تكون له ميزات أوجبت ـ مع توفيق الله نجاحه ـ وهذه القصة تؤكد إحدى الميزات وهي الحلم، والنص كله من القرآن ونظم التتابع

في الآيات بمعرفة وفهم:

«حُكي أن المأمون كان يوضئه غلامه، فغفل عن شأنه، فنزلت الميضأة من يده على جبهته، فنظر إليه المأمون مغضبا فقال:

يا أمير المؤمنين: ﴿والكاظمين الغيظ﴾.

قال: كظمت غيظي.

قال: ﴿والعافين عن الناس﴾.

قال: قد عفوت عنك.

قال: ﴿والله يحب المحسنين﴾.

قال: اذهب فأنت حر.

الغضب عيب يأتي بسببه رذائل وسوءات، وهذه القصة فيها علاج لمن أراد أن يساعد نفسه، ويمسك باليد التي مدت إليه لتريه إضاءة في هذا الطريق، تنقلها إليه هذه القصة البديعة[1].

---

(١) تمام المتون: ٩١.

يكيل له بصاعه[1]

الجليس إما أن يكون خفيف الظل، يزيل الهموم عن جليسه، ويسليه وقت فراغه، ويجاذبه الحديث عذبا، تحتك فيه الأفكار، وتتلاقح، فيأتي منها ثمرة تفيد، وتمتع ؛ وهذا الجليس، يتطلع إليه جليسه، وينتظر قدومه ؛ إن حضر سرّه، وإن غاب فقده، تزيد بوجوده بهجة الحياة، وغيابه يشعر بأن نقصا قد حدث.

وكثير من الناس يكون مرَّ به من الأصدقاء والجلساء من هو بهذه الصفة ؛ فالحياة طويلة، ولا تخلو من حدوث مصادفة تثمر صداقة تدوم، ومن أوتي صديقا مواتيا عضّ على صداقته بالنواجذ، وحافظ عليه؛ فالجليس الصالح له فوائد لا

(١) نشرت في (المجلة العربية) العدد (٢٧٢)، شهر رمضان ١٤٢٠هـ، الموافق : يناير ٢٠٠٠م

تحصى، يكفي في هذا أنه مرآة صديقه، هو الذي يبين له بمودته من عيوبه ما لا يبينه الناس، وهو الذي يبتدع له ما لم يفكر فيه مما فيه فوائد.

أما الجليس ثقيل الظل، فهو خلاف ذلك كله، هو ثقل الجبل على نفس جليسه، إن حضر طال الوقت ولو كان قصيراً، وإن غاب اهتم الجليس لمفاجأته له بالمجيء؛ يفرح عند غيابه، ويحزن لمجيئه، والثقل على الروح أثقل حمل؛ حتى لو قال الثقيل قولاً فيه بعض الفائدة فإنه لا يكون مقبولاً، لأن ذهن جليسه قد تلون ضده.

وأذكر قصة أحدهم، وقد اتفق مع جليس خفيف الظل على أن يترك باب بيته مقفلا، وأن على هذا الصديق أن يُدخل يده من كوة الباب، فيفتحه، ثم يعود فيغلقه، وكان البيت من البيوت القديمة، وهذه إحدى طرق قفل الباب وفتحه،

وكان الهدف من قفله منع أحد الجلساء الثقيلين من الدخول؛ وأمل أن تكون هذه الطريقة مجزية، وأن تؤدي الغرض، وأن ثقيل الظل إذا رأى الباب مقفلا، خلاف العادة، فسوف يعود أدراجه، وسوف يريح ويستريح.

أما الرجل الثقيل فله نظرة أخرى، مستقاة من ثقل ظله، لقد ظن أن القوم سيفقدونه، وبفقده يفقدون الكثير! فأدخل يده، وفتح الباب، ونادى صاحب الدار، وسأله إن كان يود أن يغلق الباب كما وجده، أو يجعله مواربا كالمعتاد، فسأله صاحب الدار إن كان يتحدث وهو داخلها أو خارجها، فرد بأنه داخلها، فقال له: مادام الأمر كذلك فافتح الباب على مصراعيه؛ لأن ما كان يخشاه قد وقع.

وهنا ثقيل ظل ناء بحمله كتف التراث، وفي

قصته صورة من صور ثقل الظل؛ وقد قابل صاحب الدار ثقل ظل لَفْظِهِ بما يماثله، فاقتص منه، وكال له بصاعه، وجعله يدخل الجحر الذي كان يريد أن يسوق جليسه إليه، وهذه هي القصة:

«كان رجل يحب الكلام، ويختلف إلى حسين النجار، وكان ثقيلاً متشادقاً، لا يدري ما يقول، فآذى حسيناً، ثم فطن له؛ فكان يعيد له الجواب من جنس السؤال، فينقطع ويسكت، فقال له يوماً:

ما تقول ـ أسعدك الله ـ في جد يلاشي التوهيمات في عنفوان القرب من درك المطالب؟

فقال له حسين: هذا من وجود فوت الكيفوفية على طريق الحسوبية، وبمثله يقع إلينا في المجانسة على غير تلاق، ولا افتراق.

فقال الرجل: هذا محتاج إلى فكر واستخراج.

فقال حسين: افتكر، فإنا قد استرحنا»[1].

لقد دُهي هذا الثقيل بباقعة، أنزل عليه صاعقه، فهذا دواء هذا الثقيل، ولابد عند التفكير أن يكون لكل ثقيل معالجة حسب ثقله.

***

(١) الجليس الصالح: ٢/ ٩٧.

مخارج موصلة[1]

الذي يريد أن يعرف عظمة الدين الإسلامي، وتقديره للعقل، ويريد أن يتلذذ بما ورد في كتب الفقه خاصة، وعلوم الدين عامة، فليتابع ما يبديه أصحاب المذاهب الإسلامية السلفية من آراء فيما لا يحكمه نص محدد في القرآن أو السنة، ومن تتبع ذلك سوف يجد آراء ذهبية، تدل على تربية فذة في توجيه العلماء إلى استعمال العقل بكل طاقاته، مع إطار من الاحتساب، والنية الصافية، والخوف من الله، ورجاء ما عنده من ثواب.

ليس هناك جمود، وليس هناك تعنت، وليس هناك تعصب، وليس هناك تشبث بالرأي، وليس هناك عناد، وما يحكمهم إلا الحق، وما يدل عليه،

(١) نشرت في المجلة العربية، العدد (٢٧٣) في شوال ١٤٢٠هـ، الموافق فبراير ٢٠٠٠م.

فهم أقوياء في رأيهم، متمسكون به، متشبثون بما يتوصل إليه، حتى يأتيهم ما يقنعهم ما هو أقوى، حينئذ ينقادون بيسر، ويسلمون بسهولة، ويبدون الشكر والامتنان لمن كان سبباً في هديهم إلى ما جهلوه، أو إرشادهم إلى ما غفلوا عنه، أو أخذ بيدهم إلى ما غاب عنهم، واحتجب عن فكرهم.

الحق ضالتهم، والصدق هدفهم، واتباع الدين نصاً وروحاً هو غايتهم، يستفيدون في ذلك من مخزونهم علما، أو مكنونهم ملكة، أو تجربتهم قدرة واستطاعة؛ والفقهاء، ومن بينهم القضاة، هم خير من يُعمل العقل، وهم يقظون بعقولهم دائماً، لكثرة ما يمر عليهم، واختلاف المتقاضين أمامهم، وتعددهم، وما يبدونه من حيل، وما يدلسون به من أدلة، أو بما يخفونه من حقائق.

ولقد أبدع الفقهاء في تخريج المسائل ، وإصدار الفتاوى ، واختلف بعضهم عن بعض في نتائج ما يتوصلون إليه ، في بعض المسائل ، التي طبيعتها توجب الاجتهاد ، والاجتهاد يبنى على التفكير الدقيق ، والقياس السليم ، والاستفادة من السوابق لمن كان قبلهم ممن وفق إلى حل معضل ، أو سهّل صعبا ، أو حول ما بدا مستحيلا إلى ممكن ؛ وقد ارتفع اسم أناس من الفقهاء ، لما جاؤا به من أفكار نيرة ، لفتت الأنظار إليهم ، وصار لهم أسلوب عرفوا به ، وتبعهم جمهور من العلماء ، أعجبهم رأيهم ، واتفق ما قالوا به إلى ما يجدونه في أنفسهم ، فتبعوا طريقهم عن اقتناع ، وساروا خلفهم بثقة واطمئنان .

وفيما يلي نص بديع ، يري بعض الأضواء المشعة في أذهان بعض علماء ذلك الزمن ،

والمقدرة الفائقة على تخريج الأمور مخارج موصلة إلى الهدف، وفيها الحق والعدل، بنيا على أساس من المنطق، وبروح إسلامية صافية:

قال عبدالرحمن بن معري: جاء رجل إلى أبي حنيفة، فقال: إني شربت البارحة نبيذاً، فلا أدري طلقت امرأتي أم لا؟

قال: المرأة امرأتك حتى تستيقن أنك طلقتها.

ثم أتى سفيان الثوري، فقال:

يا أبا عبدالله، إني شربت البارحة نبيذاً، فلا أدري طلقت امرأتي، أم لا؟

قال: إذهب فراجعها، فإن كنت قد طلقتها، فقد راجعتها، وإن لم تك طلقتها، لم تضرك المراجعة شيئاً.

ثم أتى شريك بن عبدالله، فقال:

يا أباعبدالله، إني شربت البارحة نبيذاً، ولا

أدري طلقت امرأتي ، أم لا ؟

قال : اذهب ، فطلقها ، ثم راجعها .

ثم أتى زفر بن الهذيل ، فقال :

يا أبا الهذيل : إني شربت البارحة نبيذاً، ولا أدري طلقت امرأتي ، أم لا .

قال : سألت غيري ؟

قال : أبا حنيفة .

قال : فما قال ؟

قال : المرأة امرأتك حتى تستيقن أنك طلقتها .

قال : الصواب قال .

قال : فسألت غيره ؟

قال : سفيان الثوري .

قال : فما قال لك ؟

قال : اذهب ، فراجعها ، فإن كنت قد طلقتها فقد راجعتها ، وإن لم تك طلقتها لم تضرك المراجعة

شيئاً .

قال : ما أحسن ما قال !

قال : فهل سألت غيره ؟

قال : شريك بن عبدالله .

قال : فما قال لك ؟

قال : اذهب فطلقها ، ثم راجعها .

فضحك زفر ، وقال : لأضربن لك مثلاً :

رجل مرّ بمثعب يسيل ، فأصاب ثوبه ، قال لك أبو حنيفة : ثوبك طاهر ، وصلاتك تامة حتى تستيقن أمر الماء .

وقال لك سفيان :

اغسله ، فإن يك نجساً فقد طهر ، وإن يك نظيفاً زاد نظافة .

وقال لك شريك :

اذهب فبُل عليه، ثم اغسله[1].

هذه فتاوى بنيت على قواعد من الشرع، وقد لا تكون الحادثة حدثت، أو أن هناك سائلاً سأل، ولا مجيباً أجاب، فقد يكون هناك فقيه من الفقهاء أراد أن يثبت القواعد في أذهان القراء، فعرض أسس الفتوى في ذهن كل فقيه.

***

(١) الجليس الصالح: ١/ ٥٠٤.

العلـم وضيــاؤه[1]

جاء الإسلام فأعلى منار العلم، وحث على تعلمه، وقدّم العالِم على ذي النسب؛ ولا غرو فالعلم ضياء الحياة، على هديه يمشي الناس، ويشقون طريقهم، وفي ضوئه يفرقون بين النافع والضار، والمفيد من المسيء، والحسن من القبيح.

العلم يُعلي المقام، ويرفع الدرجة، قال الله (سبحانه وتعالى) في كتابه العزيز ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال (سبحانه) كثير غير هذا في القرآن، وعلى لسان نبي الله ﷺ، ومنذ أشرق نور الرسالة المحمدية والخلفاء والعمال يتبارون في الإشادة بالعلم والعلماء، يتناقل ذلك الخلف عن السلف بفخر

(١) نشرت في المجلة العربية، بالعدد (٢٧٤)، ذي القعدة: ١٤٢٠هـ، الموافق: مارس ٢٠٠٠م.

واعتزاز، ولهم في هذا طرق مختلفة، وسبل متنوعة، واعتنوا بعلم اللغة العربية، لأنها وعاء العلم، وإناء حفظه، ووسيلة تنظيمه وتطويره، ويكفي أن نأخذ قصة واحدة من قصص الحث على العلم، ليتبين لنا مدى هذا الاهتمام، وبُعد هذه الالتفاتة:

«قال عبدالله بن زيد القيسي:

بينا أنا واقف على رأس ابن هبيرة، وبين يديه سماطان من وجوه الناس، إذ أقبل شاب لم أَرَ في مثل جماله وكماله، حتى دنا من ابن هبيرة، فسلم عليه بالإمرة، فقال له:

اصلح الله الأمير - امرؤ قدحته كربة، وأوحشته غربة، ونأت به الدار، وحل به عظيم: خذله أخلاؤه، وشمت به أعداؤه، وأسلمه البعيد، وجفاه القريب، فقمت مقاما لا أدري لي

معولا ، ولا حازباً ، إلا الرجاء لله وحسن[1] عائدة الأمير ، وأنا ـ أصلح الله الأمير ـ ممن لا تجهل أسرته ، ولا تضيع حرمته ؛ فإن رأى الأمير ـ أصلحه الله ـ أن يسد خلتي ، ويجير خصاصتي ، يفعل .

فقال ابن هبيرة : من الرجل ؟

قال : من الذين يقول لهم الشاعر :

فَـزَارَةَ بيْتُ العِــزِّ ، والعِزُّ فِيْهُـــمُ
فـزارة قَيْسٍ ، حَسْبُ قَيْـسٍ فِعَالُها
لهَا العِزَّةُ القُصْوَى مَعَ الشَّرَفِ الَّذِي
بنَــاهُ لقَـيْسٍ في القَـدِيمِ رِجَالُهَــا
وهَـلْ أَحَـدٌ إنْ مَـدَّ يَوْمــاً بِكَفِّــهِ
إلَى الشَّمْسِ في مجرَى النُّجُومِ يَنَالُهَـا

(١) الأولىٰ أن يقول: «ثم حسن عائدة الأمير» ابتعاداً عن مزلّة إشراك رجاء الأمير برجاء الله، وهذا منزلق سهل.

لهَيْهَاتَ مَا أَعْيا القُرُونَ الَّتي مَضَتْ
مآثِـرُ قـيس، واعْتَلاَهَـا فِعَالُهَـا

فقال ابن هبيرة :

إن هذا الأدب حسن، مع ما أرى من حداثة سنّك، فكم أتى لك من السن؟

قال : تسع وعشرين سنة .

فلحن الفتى، فأطرق ابن هبيرة، كالشامت به، ثم قال :

أو لحّان أيضاً، مع جميل ما أتى عليه منطقك؟ شِنْته، والله، بأقبح العيب .

قال : فأبصر الفتى ما وقع له، فقال :

إن الأمير، أصلحه الله ـ عظم في عيني، وملأت هيبته صدري، فنطق لساني بما لا يعرفه قلبي، فوالله إلا ما أقالني الأمير عثرتي عن ما كان من زلتي .

فقال ابن هبيرة:

وما على أحدكم أن يتعلم العربيّة، فيقيم بها أوده، ويحضر بها سلطانه، ويزين بها مشهده، وينوء بها على خصمه، أَوَيرضى أحدكم أن يكون لسانه مثل لسان عبده، أو أكّاره؟ وقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، فإن كان سبقك لسانك، وإلا فاستعن ببعض ما أوصلناه إليك، ولا يستحي أحدكم من التعلم، فإنه لولا هذا اللسان لكان الإنسان كالبهيمة المهملة، وفي رواية أخرى: كالصورة الممثلة، قاتل الله الشاعر حيث يقول:

أَلَمْ تَرَ مِفْتَاحَ الفُؤادِ لِسَانَهُ
إذَا هُو أَبْدى مَا يَقُولُ مِنَ الفَمِ
وكَائنْ تَرَى مِنْ صَاحِبٍ لَكَ مُعْجِبٍ
زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَكَلُّمِ

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ
فلَم يَبْقَ إلاَّ صُورَةَ اللَّحْمِ والدَّمِ(١)

لقد أعطى ابن هبيرة هذا المبلغ من المال هبة، إن كان زل لسان الرجل فقال: «عشرين» بدلاً من «عشرون»، وأعطاه إياها منحة دراسية، إن كان خطؤه جهلا، وليس زلة لسان، ليتعلم بهذا المبلغ ما يصون لسانه لَيجْمُل أمره، فأدبه حسن، وصورته حسنه، وتَصرفه حسن، ولم يبق إلاّ تخطّي هذه الهفوة، وقد رآها ابن هبيرة كلفاً عاب موقفه.

***

(١) الجليس الصالح: ١/٤٩٨.

مجالسة الرجال[1]

الأعمال المتماثلة المتكررة المعادة الرتيبة، حتى إذا كانت في طلب الرزق لابد أن يتسرب إلى صاحبها الملل، ولهذا حث العقلاء المجربون على الترويح عن النفس عند الملل، والإحماض بعد الإجهاد، والراحة عند التعب، فالتغيير فيه تصفية للنفس، وإزالة للضجر، وقضاء على التراخي والكسل؛ وفيه إعطاء دفعة جديدة قوية للروح، وفيه تفريج للهم، وإدخال للبهجة على الصدر؛ ولهذا نرى الناس يقبلون على حديث المجالس، إذ لا مؤونة فيه، وإنما يأتي عفواً رهواً، ويمشي مع مجرى الريح، ويتوخى الموطئ السهل، لا يقاوم، بل ينحني مع المنحنيات السهلة، حتى

---

(١) نشرت في المجلة العربية، العدد (٢٧٥)، السنة ٢٤، شهر ذي الحجة ١٤٢٠هـ، الموافق أبريل ٢٠٠١م.

لا تُعيقه المضائق، ولا تضعف عزمه المخانق.

ينتقل الناس في حديث المجالس من أمر إلى أمر: من أمر مفرح، إلى آخر محزن؛ هذا يروي عن أحداث صعبة، وهذا عن أحداث سهلة، هذا عن حياة الفقر، وهذا عن حياة الغنى، هذا عن أمر جديد، وهذا عن أمر قديم، يفرح الناس بمفترق الطريق في الحديث أحياناً، لأنه يخرجهم مما يتوقعون إلى ما لا يتوقعون، ويدخل بهم إلى منعرج يفضي إلى طريق لم يَمَلّوه بعد، ثم يعودون إلى البدء الأصل؛ وقد يكون في شعبة الحديث الفرعية، مع جدتها، ما لم يكن في المجرى الأصل للحديث، وهكذا جيئةً وذهاباً، وتردداً محبوباً في جوادّ سالكه.

ويحكم حديث المجالس في كثير من الأحيان نوع الناس الذين يحضرونها، ويديرون الحديث

فيها دون أن يكون في نيتهم ذلك، ولكن مجرى الحديث أوجب هذا، فهذه قصة مناسبة تذكرها أصغر القوم، وأتحف الجمع بها، وهذا بيت شعر جاء من أكثر القاعدين فقراً في الشعر، وأبعدهم عن طريقه، وهذه حكمة جاءت ممن لا يتوقع عنده حكمة، وهذا، وهو في طريقه إلى مجلس القوم، شاهد حادثا يَتيَقَّن أنه سوف يشد الأنفاس عندما يقصه، وهكذا يكون جو المجالس.

حضور المجالس، والاستماع لما يقال فيها عيادة طبية نفسية، مجانية، يجدها المتردد عليها متى ما احتاجها، دون نفقة، أو مؤونة، أو عبء، أو جهد، والأقدمون يعرفون جيداً فائدة عبّ عصير الأفكار، عند مناجاة الرجال، وهو عصير مليء بالفيتامينات؛ وإليك بعض ما اختاره أبو حيان التوحيدي في هذا المجال، وهو قليل من كثير:

«إن عبدالملك بن مروان قال لبعض جلسائه :

قد قضيت الوطر من كل شيء ، إلا من محادثة الإخوان في الليالي الزُّهر ، على التلال العُفر » .

وأحسن من هذا ما قاله عمر بن عبدالعزيز قال :

«والله إني لأشتري المحادثة من عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود بألف دينار .

فقيل : يا أمير المؤمنين ، أتقول هذا مع تحرّيك ، وشدة تحفظك ، وتنزهك !؟

فقال : أين يُذهب بكم؟! والله إني لأعود برأيه ، ونصحه ، وهدايته ، على بيت مال المسلمين بألوف وألوف دنانير؟ إن في المحادثة تلقيحا للعقول ، وترويحا للقلب ، وتسريحا للهم ، وتنقيحاً للأدب» .

قال : صدق هذا الإمام في هذا الوصف ، إن فيه

هذا كله .

قلت (أبو حيان) وسمعت أبا سعيد (السيرافي) يقول :

سمعت ابن السراج (محمد بن السري/ ت : ٣١٦) يقول :

دخلنا على ابن الرومي : (علي بن العباس بن جريج/ ت : ٢٨٤٣) في مرضه الذي قضى فيه، فأنشدنا :

وَلَقَـد سَـئِمتُ مَآرِبِـي
فَكَـأَنَّ أَطْيَبَهَـا خَبِيثُ
إلاَّ الحَـدِيث فَإنَّـــــهُ
مِثلَ اسمِهِ أَبَداً حَدِيثُ

وقال سليمان بن عبدالملك :

قد ركبنا الفاره، وتبطنّا الحسناء، ولبسنا

اللّين، وأكلنا الطيّب، حتى أجمناه (كرهناه ومللناه من المداومة عليه)، وما أنا اليوم إلى شيء أحوج مني إلى جليس يضع عني مؤونة التحفظ، ويحدثني بما لا يمجّه السمع، ويطرب إليه القلب»[١].

ويعلق أبو حيان على هذا فيقول:

وهذا أيضاً حق وصواب، لأن النفس تملّ، كما أن البدن يكلّ، وكما أن البدن إذا كلّ طلب الراحة، كذلك النفس إذا ملت طلبت الرَّوْح (أي الراحة)، وكما لابد للبدن أن يستمدّ، ويستفيد بالجمام الذاهب بالحركة الجالبة للنصب والضجر، كذلك لابد للنفس من أن تطلب الرَّوح عند تكاثف الملل، الداعي إلى الحرج، فإن البدن كثيف النفس، ولهذا يُرى بالعين، كما أن النفس لطيفة

(١) الإمتاع والمؤانسة: ٢٧.

البدن، ولهذا لا توجد إلا بالعقل؛ النفس صفاء البدن، والبدن كدر النفس»[(١)].

***

(١) الإمتاع والمؤانسة : ٢٨.

الإســـلام والخلـــق[1]

عندما يلامس الإيمان قلب الإنسان يصبح كل ما يأتي منه فضائل: ما يقوله فضيلة، وما يفعله فضيلة، نيته فضيلة، تفكيره فضيلة؛ يحكم هذا الإيمانُ الإنسانَ، فيجعله على الطريق السوي؛ ما يأتي منه خير، وما يجتنب يوصل إلى خير.

ومن جملة تلك الفضائل الحميدة تلك الفضائل التي تلمس حياة أفراد المجتمع الآخرين، فتجعل الصلة بين المؤمن، ومن حوله، صلة مريحة، لا تشنج فيها، ولا انفعال، ولا أثرة، ينسى المؤمن نفسه عند الآخرين، يسعى لسعادتهم أكثر مما يسعى إلى سعادته عند الخيار والمقارنة.

وفضيلة التسامح درة في تاج الفضائل، وجوهرة

(١) نشرت في (المجلة العربية) العدد (٢٧٦)، محرم ١٤٢١هـ، الموافق أبريل ٢٠٠٠م.

في عقد الخلق الحسن، يمن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها على المؤمن، فتكون حلية جميلة، ونعم الحلية، تحميه من حماقة نفسه، ومن توتر أعصابه، وتأتي له بالنتائج المسعدة المبهجة، وهي منّة من الله، وقد تكون دليل رضى، لأنه ليس كل إنسان يَحظى بهذه المنّة، ولأنه ليس كل إنسان عنده قوة الإيمان التي تزيد عن كل منّة؛ التغلب على النفس، ولجم جماحها عند الغضب، يحمي الإنسان من الإنفجار الذي يدخل حيز الجنون، ولا يبقي ولا يذر، يهدم في لحظة ما بني في سنوات، ويأتي بنتائج متتابعة ومتسلسلة، لا يعرف ما ينتج عنها، وما توصل إليه من أخطار ومصائب، أو من فقد حق، وحرمان من كسب.

ودونت الكتب الإسلامية مواقف لأناس فضلاء، حباهم الله بفضيلة التسامح، وسلحهم بسلاح التحمل والصبر، وأعطاهم بصيرة تنظر

إلى حمق الآخرين نظرة من يطلب الثواب لا الانتصار، وغض النظر لا الثأر، والعافية لا الغلبة؛ وقفوا أمام مواقف أصحاب العيوب موقف النور من الظلام، والخير من الشر، والعلو من الانحطاط والتدني.

هناك أناس بتسامحهم ارتقوا فوق مستوى معاصريهم، وارتفعوا عما اعتاد أغلب الناس عليه، من الإصرار على أخذ الحق كاملاً، ومن أول خطوة، وكَيْلِ الانتقام، أو المكابرة، للخصم الصاع صاعين؛ ارتقوا لأنهم تسامحوا، وتغاضوا وهم القادرون على المطاولة، ومحاولة أخذهم حقهم عن طريقها، ولكن لأنهم اعتمدوا سبيلا نبيلا، ومبرراً شريفاً، يليق بالمسلم، المفكر، المتبصر، الحضاري، أصبحوا في مكان مرموق.

هؤلاء كثيرون فيما دوّن في التراث، في أزمان

مختلفة، وفي كتب متعددة، فجاءت سِيَرُهُم قناديل تضيء، ما حولها، وهي تتخطى الزمن، لم تبهت مع مروره، بل ازدادت بريقاً، وتضاعفت أصالتها؛ فإن كان معاصروهم فخروا بهم مرة، فنحن اليوم نفخر بهم ألف مرة، وهذه بعض أمثلة على ذلك:

«اشترى رجل بالمدائن شيئاً، فمر بسلمان، وهو أميرها، فلم يعرفه، فقال:

«إحمل هذا يا علج!

فحمله، فكان من يلقاه يقول:

إدفعه إليّ، أيها الأمير.

والرجل يعتذر، وهو يقول:

لا والله، ما يحمله إلا العلج،

حتى بلغ منزله»[1].

---

(١) التذكرة الحمدونية: ١/ ١٤٠.

سلمان ـ رضي الله عنه ـ لم تأخذه العزة بالإثم، ولم يقل أنا الأمير، ولم يتسلح بسلطته، فيسجن الرجل، أو يعاقبه، أو على الأقل يتجاهله، ولم يتخذ أسهل السبل فيحاججه، ويسابيه، وإنما سطع في ذهنه إشعاع من أشعة الإيمان، وهو التسامح، وبحث في قاموس الآداب، فوجد أن سيد القوم خادمهم، فاتخذ من هذا بضاعة، ونعم البضاعة، وملأ نفسه بالرضى، إذ لم يطع الشيطان، الذي يدعو الإنسان إلى المكابرة، والانتصار، بحجة العزة والكرامة.

لم تأخذ سلمان ـ رضي الله عنه ـ العزة بالإثم، وينسى أنه مسلم مؤمن، ولا يذكر إلا أنه فارسي الأصل، وأن من غمزه أعرابي جلف، فيبادله التنابز بالألقاب، والتطاول في الشتائم، أو يقارعه الحجة بالحجة، وكان سوف يغلبه،

ويكفي أن يسأله عن معنى العلوجية في ضوء الإسلام، وما الداعي بالبدء بها، وهي سبّة. رحم الله سلمان، وجزاه خيراً، فقد ترك لنا إرثاً منيراً.

وإذا ما أراد الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، أن يقودا المرء بلجام قوي من الليف، أبا الله إلا أن يدحر إبليس، ويضعف سيطرة النفس، ويتدارك عبده، ويحمي أولياءه، بفضل دينه القويم، الذي ذر قرن شمس الإيمان في قلب عباده الصالحين، فانقلب شوك القتاد إلى نسيج حرير، وحل العسل المصفى محل الحنظل المركز. وما عمل المؤمن الصالح إلا زهد في كسب الدنيا الرخيص المؤقت لكسب تجارة الآخرة التي لا تبور.

ولنتدبر القصة الآتية، وننظر إلى بياض صفحة نفس المؤمن فيها، ومصدر الإشعاع في داخلها،

لنعرف أين تكمن النعمة، التي يمنّ الله بها على عباده الصالحين، وهي نعمة حكمت أحد الفضلاء في أقواله وأفعاله، واستأثرت بدنياه، نرجو أن تكون مدارج له في الجنات العُلىٰ:

«قال أبو ذر لغلامه:

لم أرسلت الشاة على علف الفرس؟

قال: أردت أن أغيظك.

قال: لأجمعنّ من الغيظ أجراً، أنت حر لوجه الله»[1].

أراد خادم أبي ذر، من منطلق ساذج، ملوث بالحقد، مطوق بالأذى، يقطر حنقاً وغضباً، أن يُخسّره، وأبى هو، وهو الخبير بسوق الطاعة والتَقوى، إلا أن يختار البضاعة الرابحة، فربما تقبل، فيكون الربح أضعافاً، أضعافاً، فسامح،

---

(١) التذكرة الحمدونية: ١/ ١٤٦.

وتكرم، وأجزل، عفا، وتصدق، وهو يعلم أن الله يحب العافين، ويحب المتصدقين، نرجو أن يكون الله ـ سبحانه ـ قبل عمله.

وأبو ذر ـ رضي الله عنه ـ تعود أن يمشي مشتريا في سوق تجلب فيها أسباب الأجر والثواب، نقودها التقوى والطاعة؛ وهي عادة لاشك أنها حميدة، والتردد فيها محمود، والقصة عن هذا هي:

«شتم أبا ذر رجل، فقال أبو ذر:

يا هذا لا تغرق في سبنا، ودع للصلح موضعا، فإنا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه»[1].

هذا يعصي الله، وغريمه يشفق عليه من الإيغال في المعصية، والغرق في الذنب، فيحمل عنه بهذا هم تلمس العذر، عند احتياجه لذلك؛ هذا

(١) التذكرة الحمدونية: ١/ ١٤٠.

يخطئ، وهذا يحمل عنه ثقل وزره، هذا يغضب الله، وهذا يتخذ إغضاب غريمه وسيلة لإرضاء الله؛ فرق بين الثرى والثريا، وشتان بين الباطل والحق، وبين الإساءة والإحسان، ما بينهما مثل ما بين المشرقين.

إن محيطهم في ذلك الزمن محيط الإيمان العميق، كانوا قريبين في زمنهم من تعاليم الإسلام، فقدروها، ففتحوا بذلك نوافذ على قلوبهم، يدخل منها إشعاع الإيمان، ويتغلغل، ويستقر، ليضحي قوة داخلية، تقودهم في حياتهم إلى ما يوصلهم بسلام إلى آخرتهم، فكانوا بهذا بارزين في مجتمعهم، يُحتذى بهم ويقتدى، وينهج على نهجهم، وارتفعوا في محيطهم أعلاما يهتدى بعلمهم، وينسج على منوال ما يفعلون، ولم يتمكن إبليس بإغوائه، ولا بتسليط أوليائه، أن

يخترق حصون قلوبهم، المنيعة بالإيمان، المحصنة بالثقة، المسوّرة بسياج الإرادة، والمحاطة بالتقوى، فكانوا يردون محاولاته، ومن معه، بمثل ما رد به عمار بن ياسر من عابه، باستفزاز من الشيطان، وتحريض إغوائه:

قال رجل لعمار بن ياسر ـ رحمه الله:
أيها العبد الأجدع.
وكانت أذنه قد أصيبت في سبيل الله، فقال:
عيرتموني بأحب أذنيّ إليّ»(١).

نبزه مخاطبه بلقب ظن أنه يكرهه، حرّكه به إبليس، فناداه أولا بكلمة: «العبد»، ثم عيّره بقطع أذنه، وقصد أن يؤذيه؛ ليوغر صدره، ويغلي مرجله، ويوقد ناره، ويستفز خيله ورجله، ليرضي إبليس، ويغضب خالقه، فجاءه

(١) التذكرة الحمدونية: ١/ ١٤١.

الرد برداً وسلاماً، جاء مملوءًا نبلاً، ومدثراً بالشرف، جاء رُقيّاً واعتلاءًا، فعمّار ترفّع عن أن يسمح لنفسه أن تنزل إلى درجة الشاتم، ولم يرض لنفسه إلا ما وهبه الله من حسن الخلق، والسيطرة على النفس، وأعطى نفسه المنزلة التي هيأها الله له، فقد كرم نفسه عن الرد على الفحش بمثله، وجعل نص القرآن أمامه: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠]، صدق الله العظيم، وأحسن عمّار الاقتداء.

لكأن عمّاراً، بهذا الموقف، جالس في مسجد، أمام مريدين، يلقي عليهم، بكل هدوء وتؤدة، درساً في الخُلق، ومقابلة السوء بالحسنى، فيكشف للمسيء أن هذه الأُذن هي مصدر فخره، ومحط اعتزازه، لأنها وسام شرف استحقه في الجهاد، وحمّل كلمات الرد التي وجهها إلى معيبه

بأن ما سمعه مصدر مدح وثناء، وكأنه يقول له أخفقت، وارتد إليك سهمك، فشتيمتك ثناء، وانتقادك تقريض ومدح.

***

الرشـــوة[1]

الرشوة كريهة، وذات رائحة منتنة، ولها مستقر مزُرْ في نفوس بعض الناس، منذ عهد قديم، تلازمهم، وتقودهم. والملازمة ذات عمق سواء كانت ملاصقة لنفس الراشي أو المرتشي، وتقوم على تفكير ملتوٍ، يوصل إلى نتيجة مريضة.

والراشي طامع يريد أن يأخذ أكثر من حقه، فيستولي على حق غيره، ولا يفكر إلا في نفسه، ولا يهتم إلا بمصلحته؛ ينسى الآخرين، وينسى مجتمعه، يعميه حب النفس عن أن يفكر بما هو أبعد مما تحت أنفه، لا يأتي في باله أن هذا الداء يضر بمجتمعه، وأنه قد يعود عليه بالوبال فيما لو انتشر واستشرى، أو لو مسك بجرمه، ولا يفكر في أن

(١) نشرة في المجلة العربية، العدد (٢٧٧)، صفر ١٤٢١هـ، الموافق: مايو ٢٠٠٠م.

هذا مرض، وأنه يغري بالتعمق، فيصبح وباءاً، ويبوء صاحبه بالإثم وحده، وينصب عليه اللوم كاملاً.

وقد يكون عارض الرشوة صاحب حق، لم يجد سبيلا للوصول إلى حقه إلا عن طريق الرشوة، عند من لا يعطي الحق إلا بها، في مجتمع انتشرت فيه الرشوة، واستشرت، واستعرت نارها، وتطاير شرها وشرارها، واعترف بها المحيط حولها، حتى وضع لها أعرافا خارج الأنظمة، وهذا الراشي في هذه الحالة يجد العذر، خاصة إذا كان الأمر يخص الحياة أو العرض، وحينئذ يقع اللوم كاملا على المرتشي، وما أكبر ذنبه، وما أعظمه عند الله.

والمرتشي قد يكون ضعيف النفس، ضعيف الإرادة، لم يستطع مقاومة الإغراء، وأغراه

الكسب، ونسي أن هناك صاحب حق ينتظر حقه، أو تناسى ذلك، أو فطن لذلك، ولكنه لم يكترث فيتجاهل، وأعماه غرضه، وحجب عنه سمعه صوت الضمير، ونداء الدين، ودعوة الواجب، وهو بهذا رجل سوء، وشر على المجتمع، هادم لأركان اطمئنانه، يساعد على بث رائحة كريهة لوباء فتّاك، سوف ينتشر فيما حوله، بجهود هذا المرتشي، وأمثاله، وسيكون هو ومن معه في يوم من الأيام ضحية له، فيجني شر ما زرعت يداه.

وأسوأ من هذا ذاك الذي لا يحتاج إلى إغراء، فقد تعدى هذه المرحلة، وانتقل إلى مرحلة أعلى، فهو يساوم ويشترط، ويغالي ويطالب بوقاحة، ومستعد للأذى والشر إذا لم يأت الأمر على ما يريد، أو في المستوى الذي يريد، ويبعد عن طريق الله، ويدخل بإيغال في طريق الشيطان، بعد أن ذاق

طعم الحرام، وأصبح نسيج لحمه منه.

مثل هذا يضع الخطط، وينصب الشباك، وينصبّ تفكيره على إتقان العمل، وإجادة هذا الفن، وتهيئة الحجج، وإخفاء الأثر. كل هذا وهو غافل عن أنه ليس في مأمن من العدل، ينزل الله العقاب على يد من يختاره، لهذا المرتشي، المساوم، في وقت لم يحسب حسابه، وفي وقت هو في أشد الحاجة إلى أن يكون بعيدا عن العقاب؛ والله بالمرصاد لمن ينزل الأذى بعباده، ظنا منه أنه ينجو، وقد ينزل الله به مرضاً عضالاً، وهو في قمة الصحة، وفي أعلى درجات السعادة الزائفة، فيأتي علاجه على كل ما جمع حلالا أو حراما، أو يجعله الله سبحانه تحت طائلة محاسبة تنتهي بغرامة هي الماسحة الماحقة.

هناك بوادر رشوة رُصدت في أحد كتب التراث، وهي تُري أحد مداخل الرشوة، والطرق

التي يسلكها الشيطان، وتُري مجرى سيرها، والعقبات التي وقفت في طريق تنفيذها، وما انتهى الأمر إليه؛ وفيها طرافة، رغم ما أظلها من ظلمة، وأحاط بها من سوء:

«بلغ عبدالملك بن مروان أن عاملاً له قبل هدية، فسأله عن ذلك فقال:

بلادك عامرة، وخراجك وافٍ، ورعيتك راضية.

قال: أخبرني عما سألتك.

قال: قد قبلت.

قال: لئن كنت قبلتها، ولا تنوي لصاحبها مكافأة، إنك لئيم؛ وإن كنت قبلتها لتستكفي رجلا عاجزا إنك لخائن؛ ولئن كنت قبلتها وأنت مضمر تعويض صاحبها لقد بسطت ألسن أهل عملك بالقدح فيك، وذلك جهل، وما في من أتى

أمراً لم يخل فيه من، لوم وخيانة وجهل، مُصْطَنَع . . وعزله»[1].

أما الأوزاعي - رضي الله عنه ورحمه - فقد تعرض لرشوة، فتصرف إزاءها بحكمة، لا تخطر إلا على بال أمثاله:

«أهدى رجل إلى الأوزاعي جرة عسل، وقال له:

يا أبا عمرو، تكتب لي إلى والي بعلبك؟!

فقال: إن شئت رددت الجرة، وكتبت لك، وإلا قبلت الجرة، ولم أكتب لك.

قال: ردّ الجرة.

فردها، وكتب له، فوضع عنه ثلاثين ديناراً»[2].

كشف الأوزاعي نية الرجل، وجعله يُقرّ أن الهدية لم تكن لوجه الله، وإنما هي لغرض، ولأن

---

(١) التذكرة الحمدونية: ١/ ٤٢٩.

(٢) التذكرة الحمدونية: ١/ ١٦٧.

الأوزاعي يرى أنه يستحق أن يُنزل عنه المبلغ، قبل أن يشفع له، ولكنه طهّر نفسه، وطهّر قَبِيلَهُ من أن يشوب عمله دنس، رحمه الله رحمة الأبرار. لقد كسب الرجل ثلاثين ديناراً، وخسر الأوزاعي جرة العسل في الدنيا، ونرجو أن الله قبل عمله، وكتب له من عسل الجنة أضعافها، والله أكرم الأكرمين، ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾[1].

***

(١) سورة التغابن: ١٧.

الخيــر مضيء[1]

الخير إشعاع ساطع في الصدر، ينير جوانب الضمير، فلا يرى صاحبه إلا الوجه المضيء في جوانب الحياة، ولا يرى إلا أن دوره في الحياة الإبقاء على هذا الضياء، والمساهمة في زيادة بريقه ونشره.

والخير في المجتمع مقدر ومبارك، لأنه عماد من أعمدة بنائه، وركن من أركان سعادته، إذا وجد فيه انتصب فيه قائم المحبة، وارتفعت خيمة البهجة، وعلا صرح الوفاق، والتفاهم. وقد يكون الخيّرون في مجتمع ما كثيرون، فتطفر السعادة حتى تصل إلى غاية يغبط أهل هذا المحيط عليها، وقد يكون الخيّرون، أو من يحتاج المجتمع

(١) نشرت في المجلة العربية، العدد (٢٧٨)، ربيع الأول ١٤٢١هـ، الموافق يونيو ٢٠٠٠م.

إلى نظرتهم، قليلين، فتنزل البركة في أي عمل يقوم به أحدهم، وأي خطوة يخطوها الموفق منهم.

أقول هذا وفي ذهني مجتمعاتنا في الماضي، عندما كان الرجل يسافر خارج بلاده، ولا أهل له إلا زوجته، التي قد لا يكون لها أهل، أو أن أهلها في بلد آخر، ومع هذا فهي لا تشعُر بالغربة، ولا تنقصها الحماية أو الأنس، أو الإعاشة، يتكفل ببعض أمرها جار، وببعض أمر آخر جار، أو ذو رحم بعيد، أو معرفة، أو رجل خير يسمع عنها، أو صاحب برّ يعرف عن بعد زوجها، وبهؤلاء تجد أهلاً لم تلدهم أمها، تأتيها منهم الرحمة، ويوافيها منهم التفقد والملاحظة والحنان، فتحل من جراء عملهم الطمأنينة في نفسها، ويخف عن كاهلها عبء المعيشة، وينزاح عن صدرها ثقل غياب الحبيب الغائب، وتزول وحشة الوحدة، وتتسع الحياة.

في مكة، وهي مدينة كبيرة، ليس لها طبيعة القرى، وصغر المجتمع، كان هناك فيها ظاهرة ترك الزنبيل، أو الإناء، والفوطة، خارج بيت الرجل الغائب، أو المريض، أو المقعد، وأصبح ملازما لهذا منظر مألوف، وهو أن يسارع أول المارة في ذلك الحي، عند رؤية الزنبيل بأخذه، والاستماع لما تريده «المستورة» من حاجة، وهي خلف الباب، تملي طلباتها، فإن كان في الزنبيل دراهم وإلا فصاحب الفضل لا يقف معروفه دون أن تحل نقوده محل نقودها.

الخير في ذهن من يقوم بهذه المهمة جاء من إيمانه بالله، وبثوابه، وإدراكه أن الزمن دول، وإن زوجته، أو ابنته ربما في يوم من الأيام تكون في موقف مماثل. إنه في هذه اللحظة ينظر إلى الزنبيل وكأنه زنبيل ابنته، وكأن التي خلف الباب ابنته،

وهذا يجعل عمله خالصا من كل شائبة، ومملوءًا بالأمل في الله أن يقبله، وأن يثيبه، وألا يحوج ذويه إلى مثل هذا العوز.

الناس في تلك الأيام يتسابقون إلى عمل خير مثل هذا، فيه رضى الله، ورضى الناس، ورضى أنفسهم، وليس هناك راحة أكثر للنفس من أن تمتلئَ بالرضى، وتحاط بالسعادة؛ إن عمل الخير منعة ضد تقلبات الزمان، وحصن أمام تغير الأيام.

لم يكن هذا غريبا على من تعمقت جذور الدين في عقيدتهم، وأوغلت الإنسانية في نفوسهم، فسعوا لسعادة مجتمعهم، وإزالة ما قد يعترض حياتهم من ضيق وكآبة؛ كان من بين هؤلاء الخيّرين من حمل في صدره نفساً زكية، فأثقل كتفه بما خفف عبء الأيام عن كاهل أناس احتاجوا

إلى المعونة، وإلى تفقد أحوالهم، ومواساة جراحهم. «زبيد الأيامي» كان رجل خير، وصاحب بر، كان يفتش عن المحتاج ليسد عوزه، وعن المصاب ليخفف من معاناته، يأتي من ذلك بصيص نور يطل من كثب لا يلبث أن يصبح نوراً ساطعاً، وإشعاعاً باهراً؛ كان - رحمه الله - يبحث عن مظان الإفادة، فيسارع لإفادة الناس منها، ويتحرى عن مواقع الخير فيغرف لهم من نبعها، لا يعيقه عائق، ولا يقف في طريقه عقبه؛ يتجول في وقت شدة البرد، وفي وقت شدة الحر، وفي وقت المطر، لأن هذه الأوقات هي التي تُقَدَّر فيها الإعانات، ويُحمد العمل.

«كان زبيد الأيامي، إذا كانت ليلة ممطرة، أخذ بشعلة من نار، فطاف على عجائز الحي، فقال:

أَوَكَفَ عليكن البيت؟ أتردن ناراً؟

فإذا أصبح طاف على عجائز الحي، فيقول: ألكُنَّ في السوق حاجة؟ أتردن شيئاً»[(١)] .

***

(١) التذكرة الحمدونية: ١/ ١٦٦ .

عبق الكرم [1]

«عن محمد بن المنكدر، عن أم ذرة، وكانت تخدم عائشة ـ رضي الله عنها، قالت:

إن ابن الزبير بعث إليها بمال في غرارتين (الغرارة الكيس الكبير) ثمانين ومئة ألف، فدعت بطبق، فجعلت تقسمه بين الناس، حتى فرغ.

فلما أمست، قالت:

يا جارية، هاتي فطوري

فجاءتها بخبز وزيت

فقالت لها أم ذرة: ما استطعت، فيما قسمت اليوم، أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟

فقالت: لو كنت ذكّرتني لفعلت» [2].

---

(١) المجلة العربية: العدد (٢٧٩)، ربيع الآخر ١٤٢١هـ، يوليه ٢٠٠٠م

(٢) المستجاد من فعالات الأجواد ص ١٣.

هذه قصة، والقصة الأخرى:

«اشترى عبدالله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره، التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء آل خالد، فقال لأهله:

ما لهؤلاء؟

قالوا: يبكون لدارهم التي اشتريت.

قال: يا غلام، إيتهم، فأعلمهم أن الدار والمال لهم جمعا»[1].

هذان النصان مضيئان، لما اشتملا عليه من نبل في القصد والعمل، تمثل ذلك في نسيان النفس، ومكاسبها، وتذكُّرٍ للمحتاجين من الناس، وهذا أمر لا يأتي إلا من نفس امتلأت بضياء الإيمان بالله، والسعي وراء رضاه، وبحب الخير عموماً،

(١) المستجاد من فعالات الأجواد: للتنوخي: ١٧.

والبحث عن طرقه، وتتبع مساربه، واختيار أفضل جواده، للسير فيها، سيراً يصبح عادة.

وعمل عائشة ـ رضي الله عنها ـ جود تعدى الحدود، فهي لم تعطِ بعض ما جاءها من مال، بل أعطته كله، راضيةً بهجةً، تغمرها سعادة لَمِا تتوقعه من ثواب الله؛ أعطته وهي محاطة بإشعاع الدين من كل جانب، فهي زوجة خير الخلق ﷺ، وهي أم المؤمنين، وهي صائمة؛ واحتياز المال له فرحة، ولكن فرحتها به، غير فرحة الناس به عادة، لم تفرح به لتكنزه، ولا لتنميه مالاً بمال، ولا لتدخره للإنفاق على الأكل والشرب والملبس، ولا لتستثمره في زراعة أو عقار أو تجارة، وإنما لما هو أفضل من هذا وأربح. فرحت به لتفرج به عن مكروب، وتغني به عائلاً، أو تسد به حاجة معوز، أو ترفد به أرملة أو يتيماً، أو تعضد به

معاقاً، أو تدهن به صدر حزين، أو تبل نفساً أيبسها مرّ الدهر وصرفه، وأعنتها نقص الجهد، أو ضعف الشيخوخة، أو نفساً أمضها المرض، أو تكالبت عليها الأحداث.

نسيت ـ رضي الله عنها ـ أمام هذا كله نفسها، ولم تذكر أنها صائمة، وأنها في حاجة، هي وجاريتها، إلى ما تكسران به الصيام. هذا كان منزوياً بعيداً في ذهنها، اتخذ مكانه في الهامش حياءً مما كان في المتن، فالذي كان في بؤرة التفكير طغى على كل شيء سواه، شغل هذا الأمر كل طاقات الذهن.

أما عبدالله بن عامر بن كريز، فرجل كريم مشهور، وجواد معروف، تتناقل أخبار كرمه وجُودِهِ الركبان، وله قصص متداولة في كتب الأدب، تدهش وتعجب، وقد أعطاه الله فأجزل،

وأنعم عليه فأكثر، فكان شاكراً لهذا العطاء، وعارفا بهذا الفضل، فهو رجل ذو نية حسنة صافية، وأفعال حميدة نقية. وقصته التي مرت تمثل اهتزازةً من اهتزازات العاطفة عنده، وانتفاضة من انتفاضات الحنو، والتفاتة من التفافات الأريحية، سمع صوتاً، شق جيب الظلام، ومزق سكون الليل، فأزعجه هذا الصوت، وأقض مضجعه هذا النواح، ونواح سيدة، وجارة، له من التأثير ما يحرك الحجر، فما بالك بسمع عبدالله الرقيق. لقد شد انتباهه هذا الحدث، واندهش عندما سمع عن أسبابه، وهو الذي يجلبِ السعادة للناس، فكيف به يكون سبباً في شقاء جارات.

هذا داء عنده دواؤه، وعسرة عنده ـ بفضل الله ـ يسرها؛ والأمر عند غيره مختلف فهذا بيت مجلوب، صاحبه في عسرة ألجأته إلى بيعه بثمن بخس،

والبضاعة المزجاة صيد التاجر الفطن؛ ولكن عبدالله لم يكن من هذا النوع من الناس، وليس هو من يبني سعادته على شقاء الآخرين، فعبدالله نسي المكسب، ونسي ثمن البيت وانخفاضه، ولم يأت في ذهنه إلا جاره وحقه، وسعادة أهل هذا الجار؛ غلبه هذا؛ وغلبه ما هو عليه من عادات حميدة، وخلق فاضل، وتذكر مع هذا، تعلق أهل البيت ببيتهم، وتصور أسى خروجهم منه، وتسكعهم في بيوت لا توائمهم، يطاردهم مُلاكها بدفع إيجارها، تذكر عبدالله الجوار والعشرة، تذكر نعمة الله عليه، فلم يتردد في أن يهب لجاره بيته، راضياً بهجاً، سعيداً مسروراً، ومع البيت ثمنه.

هذا هو عبدالله بن عامر بن كريز، الذي لجوده المفرط، وكرمه المتعدي للحدود، أصبح مشجبا للقصاص والأدباء، يعلقون عليه ما يمر بخيالهم

من قصص عن الكرم، مثلما جعلوا حاتماً الطائي في الجاهلية رمزاً للكرم، وإياسَ بن معاوية في الإسلام رمزاً للذكاء، والأحنف بن قيس رمزاً للحلم.

أنوار مثل هذه تشع في المجتمع، فتحيل الظلمة إلى ضياء، وتحل البسمة محل التقطيب، وتنشر السعادة، وترفع، بإذن الله، الشقاء، وتعلّي الذكر، وتستجلب الدعاء، وتغري بالتقليد، واتخاذ هذا النهج وأهله قدوة ومثالا، وتنبه إلى فضائل هذا المسلك.

وقد يظن أن في بعض ما يروى عن الكرماء المدهشين مغالاة، وقد يكون الظن في محله، وقد لا يكون، لأننا عندما نرى بعض الكرماء في عصرنا هذا ينتفي تحفظنا، ويزول شكنا، ونجزم بأن ما يروى صحيح واقع، فالذين منا عرفوا الشيخ محمد الحمد الشبيلي ـ رحمه الله ـ ورأوا كرمه، المتعدي

الحدود، والمتعدد الجوانب، عندما كان سفيراً في دول متعددة، يسلمون بهذه القصص.

لقد كان ـ رحمه الله ـ لا يرحم نفسه، جهداً وبذلاً، رغم دخله المحدود؛ وهذا لم يكن يُعيقه عن الصرف، أو الإهداء؛ فكان يستدين ويقترض، حتى يأتيه فرج لم يحسب حسابه، فيوفي اليوم ديناً، يبدأ مثله في اليوم نفسه، ينتهي دين متراكم، ليبدأ آخر في التراكم حتى يقيض الله من يساهم في هدم هذا الصرح المتعالي.

رحمه الله، فقد كان نادراً بين الرجال، وجعل ما لا يصدق، لإغراقه في الخيال، حقيقة ثابتة، وواقعاً ملموساً، لقد كان حاتماً في هذا الزمان، وكان أحنفاً أيضاً، فلم يكن يُرى إلا باسماً، لا يستفزه شيء، ولا تحركه غضباً المدافع!!

***

نقاش العلماء(1)

العلماء، بطبعهم أهل فكر نقي، وذهن صاف يزداد بالقراءة، وينمو بالاستماع، ويتعمق بالتكرار، ويضيء مع الفحص والتدقيق. والنقاش بين العلماء وسيلة من وسائل شحذ الذهن، وزيادة الحصيلة العلمية، وأداة من أدوات تثبيتها؛ ولهذا فهم يقبلون على الإقدام عليها، والتنقل بين ربوعها، وطرق أبوابها، يغشون رياضها، ويتفيأون ظلال أفنانها، مع شدة عناية بها، وسعي حثيث إليها، يقدمون بخطوات ثابتة، وسير وئيد؛ ويأتونها بصدر رحب، ونفس مشتاقة، لأنهم يرونها أساساً من أسس طلب العلم، وعماداً من أعمدته.

---

(1) العدد: (٢٨٠) من المجلة العربية، جمادى الأولى ١٤٢١هـ، الموافق أغسطس ٢٠٠٠م.

والنقاش، إذا لم يوصل إلى ما يحسم الأمر، فإنه ينبه إلى نقص العلم عند المتجادلين، مما يشعرون معه إلى وجوب العودة إلى مصادر موثوقة، يؤمل فيها ما يهدي إلى الضالة، وقد تكون هذه المصادر كتباً قيمة، أو علماء بارزين، أو متخصصين نابهين، أو تكون العودة في البحث والاستقصاء إلى مسائل سابقة يقاس عليها، أو حوادث يرجع إلى سبق العلماء إلى معالجتها. ويبقى الأمر في ذهن المتجادلين يشغل بالهم، ولا يطمئنون حتى يصلوا إلى ما يريحهم راحة تامة، تشفي الغليل، وتقطع الجدل؛ لأن الأمر لا يتوقف عند الجدل النظري، بل يتعداه إلى جانب التطبيق، ومن الأفضل أن يهيأ الحل قبل الحاجة إليه، قياساً على إعداد الدواء قبل وقوع الداء.

ويبدأ النقاش أحد العلماء، مع واحد أو أكثر

منهم ؛ يختار لهذا النقاش مشكلة فقهية ، أو أدبية ، أو لغوية ، أو نحوية ، أو شعرية ، أو عقلية ، أو اجتماعية ، ويختارها خارجة عن الطريق المعتاد ، والمعلومات القريبة من الذهن ، وينتقيها من بين ما يحتاج إلى علم واسع ، وفهم دقيق ، وقد يكون الإبهام فيها أحياناً هو الركيزة التي قام عليها السؤال المطروح ، وقد تكون الخدعة في التلاعب في الألفاظ أو المعاني ، أو في تداخل أمر مع أمر .

ولا يخلو الأمر في طرح هذه الأسئلة من نية الاختبار المنطوي على هدف التعجيز ، مع الأمل في أن يكشف هذا عن عمق علم السائل ، وسعته ، وقصور علم المسؤول . وقد لا يكون السائل أكثر علما ، ولا أعمق فهما ، ولكنه سقط على مسألة عويصة ، فأطبق يده عليها لهذا الغرض ، أو سبق لعالم أن سأله عنها ، ومر بما يمر به المسؤول الآن ،

أو لعله بحث عن شيء هذه طبيعته، فجاء به محققا لغرضه، في التباهي، أو سمع ما جاء به الآن في حلقة درس، فجاء الآن يزهو به، ويفخر، وليعلوا بهذا درجة أو درجات، وينزل الآخرون درجة أو درجات.

ويجب ألا ينظر إلى هذا على أنه عبث ولا فائدة منه، فهو في الحقيقة أبعد ما يكون عن ذلك، فعند التدبر والتبصر، وعمق التفكير، هو رياضة فكرية؛ والإنسان ليحافظ على صحته، ولينميها، يقدم على التمارين الرياضية القاسية، الطويلة، المتتابعة، والعقل كذلك يحتاج إلى رياضة، والجدل هو رياضة العقل، وتمارينه، إذا بنيت على أسس سليمة، وقواعد ثابتة، فالجدل يفتح أبواباً مغلقة، ويقيم صروحاً عالية، ويصلح متهدما، ويجلو كابيا، ويوقظ نائما، ويداوي عليلا، ويسد أبواب

ريح فاسدة، ويفتح نوافذ تجلب الهواء المنعش، يوحي ببعض هذا النص الآتي:

«قال الأعمش لإبراهيم النخعي:

ما أعلم عندك شيئاً إلا وقد أخذته.

قال: فما تقول في امرأة، ورثت مالاً من زوجها كله؟

قال: لا أدري.

قال: هذه امرأة اعتقت عبداً، ثم مات، فورثت الربع بالتزويج، والباقي بالولاء»[1].

***

(١) البصائر: ٧/٦.

ويؤثرون على أنفسهم[1]

عندما يشع نور المحبة في قلب إنسان ينير جوانبه، ويرقق حواشيه، ويلين تلافيفه، وعندما يزرع الله الإيمان والخير في صدر المرء يخضرّ كل غصن فيه، وتزهر كل ورقة، وتنضج كل ثمرة. والتقرب إلى الله وسيلة من وسائل حلول هذه النعم، ونمائها في صدر الإنسان وفي قلبه.

والعبادة أداة من أدوات التقرب إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومعرفة الإله حق المعرفة، ولا يتأتى ذلك كاملا إلا إذا وقفَ الإنسان على تتبع ما يملأ ذهنه بالعلم عنه ـ جلا وعلا ـ وتقرب منه، ووصل حبله بحبله، وسببه بسببه. والعباد، وأهل العلم هم أقرب الناس إلى معرفة الله ـ

(١) نشرت في المجلة العربية، العدد: (٢٨١)، السنة (٢٥) جمادى الآخرة ١٤٢١هـ، سبتمبر ٢٠٠٠م.

سبحانه وتعالى - وإلى ما يقرب إليه، ويرضيه، وإلى ما يبعد عما ينهى عنه وبزجر.

والعالم يمشي إلى غرضه بنور العلم، والعابد يسير إلى هدفه بالعلم والتدبر والتبصر والصبر والمثابرة، فهو يعطي لهذا وقتاً لا حدود له، ينقطع له، ويهجر من أجله اللذات والمُتع، ويستولي عليه تقليب الأمور على وجوهها، ويساعده ذلك على كشف كنهها، تعضده في ذلك تجربة طويلة، فالعبّاد عادة من كبار السن، ممن عركتهم الحياة، وعصرتهم السنون، وأنضجهم مرور الأيام والليالي.

والكون مرئيه، ومسموعه، ومتخيله، مليء بما يحتاج المرء إلى معرفته، ولا يوصل إليه إلا التفكير العميق، والمقارنة الدقيقة، والانقطاع الكامل. ومن تدبر وتبصر وثابر وصبر وصل إلى

ما يجعله نافعاً في نفسه لمجتمعه، حكمةً وتوجيهاً. هؤلاء الناس هم ركائز المجتمع، ومثبتوا أعمدة خيمته، يحمون مجتمعهم من أن تنسدل في أفقه سحب مظلمة، أو ظلال قاتمة، ويسعون لما يشع النور، وينشر الطمأنينة في كل زاوية من جوانبه، ما وسعهم الجهد وأمكنتهم الفرصة.

لهذا، ما يأتي منهم يكون كاملاً في حدود ما يستطيعه البشر، وفائدته عامة، ويستحق أن يؤرخ له، وينار بحقائقه الورق، فينحدر مع الزمن من جيل إلى جيل، ويبقى في الأذهان، ملء السمع والبصر، يرثه الأبناء عن الآباء، ويزيد فيه كل جيل إضافة مباركة، مما يقوي الإيمان به، والإقرار بصدقه، وبما يتركه في المجتمعات الخيّرة من سعادة وطمأنينة، تتعطش إليه المجتمعات إذا فقدته، وتبحث عنه في مظانه إذا غاب عنها.

والصفات الحميدة التي يتصف بها الخيّرون من العلماء، ومن العبّاد، متعددة لا تحصى، ومن أبرزها، مما يشع نوراً في القلب، وضياءً في النفس وبهجة في المجتمع، نسيان الذات وإيثار الآخرين عليها بالخير كله. هؤلاء هم من وصفوا في القرآن الكريم بأنهم: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]، إذ أن هؤلاء من ذوي العزم لأن أعدى أعداء الإنسان نفسه، فهي الأمارة بالسوء، ومن السوء أن تؤثره عند نفسه على غيره، بقصر الخير عليه، ولو على مضرة الآخرين، وبخسهم حقهم، وإلحاق الضرر بهم، خلافا للصورة الجميلة التي رسمها الشاعر بقوله:

فَلاَ هَطَلَتْ عليَّ وَلاَ بِأَرْضِي
سَحَائِبُ لَيْسَ تَنْتَظِمُ البِلاَدَا

واتّباعاً للصورة السيئة التي رسمها الشاعر بقوله :

إذا مِتُّ ظمآناً فلا نَزَلَ القَطْرُ

الخيّرون من العلماء والعباد ، ومن وفقه الله من غيرهم ، يتلذذون بعطائهم لغيرهم ، وبرؤية غيرهم يرفل بنعمة هم مانحوها ، سواءً كانت سد عوز ، أو أوصلت إلى تفريج كربة ، أو هدية في يوم فرح ، مثل أيام العرس ، أو العيد . وهذا تصرف حضاري عميق ، لا يعرف كنهه إلا من وصلت المدنية إلى جذور روحه ، وعمق نفسه ، ودخل في نطاق ما أحسن وصفه الشاعر بقوله :

«كأَنَكَ تَعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُه» . .

وقد بلغ أحد العباد القمة في اتّصافه بصفة إيثار الآخرين على نفسه ، وفي نظرته إلى هذا الأمر بعمق وتخطيط . وفعله لا يأتي إلا من نفس أنار الله

جوانب صدر صاحبها، وأشاع الضياء في تلافيف قلبه، فتشبثت به الفضيلة، لا تريد أن تفلت منه، أو يفلت منها، فأصبحت جزءًا من نسيج لحمه ودمه، وهذه هي قصة العابد:

«روي أن عابداً قدّم قرصيه ليتعشى، فعرض له سائل، فأعطاه أحدهما، ثم قال:

ما ذا بمشبعه، وما هذا بمشبعي، ولأن يشبع واحد خير من أن يجوع إثنان.

ثم ناوله القرص الآخر، فلما نام أُتِيَ في منامه، فقيل له:

سل حاجتك؟

فقال: أن يغاث الناس[1].

نسي هذا العابد نفسه، وذكر حاجة الناس، حب الآخرين قفز إلى السطح، بعد أن كان

---

(١) التذكرة لابن حمدون: ١/ ٢٣٢.

متغلغلاً في سويداء حياة العابد، كان في داخله نظريا فخرج إلى حيز العمل، حتى في المنام جعل نفسه مع المحتاجين، ليعرف حاجتهم، فوجدها في أن يغيث الله العباد، فيغتني جميع الناس، ولا يحتاج أحد إلى أحد، لا يدفق أحدهم ماء وجهه على عتبة بيت موسر، هو يريد السعادة للناس، فإن أغيثوا فرحوا فرحا لا يعدله فرح، لأن في ذلك شبعا لهم، وعزّةً تطرد الذلّة، مع المحافظة على الكرامة. والخلق عيال الله، وهذا العابد يعرف الله، ويعرف ثوابه لمن اعتنى بعياله ـ عز وجل ـ لهذا فعل ما فعل، ونعم ما فعل.

***

من هموم الحكام[1]

هموم الحكام كثيرة، والخيّر منهم همومه أكثر من غيره، لأنه يريد لنفسه ولرعيته الراحة والطمأنينة. والحكم يستوجب أن يكون بال الحاكم منشغلاً في توفير أسباب استتباب الأمور حتى يشيع العدل، ويعم الرخاء، وتسود الصلة الحسنة بين الناس، ويزدهر الأمن.

والحاكم العاقل يسعى لإيجاد الجو الملائم لمجتمع سعيد، ويلج المداخل الموصلة إلى مظان الخير والنعم، ليطمئن كل صاحب مهنة في مهنته: الصانع في مصنعه، والصائغ في مشغله، والتاجر في متجره، والنجار في منجرته، والفلاح في حقله، وابن البادية في صحرائه،

(١) نشرت في المجلة العربية ، العدد (٢٨٢)، رجب ١٤٢١هـ، أكتوبر ٢٠٠٠م.

وابن المدينة في مدينته . والناس في أعمالهم هم حسيبو أنفسهم فيما يختارونه وسيلة لمعيشتهم .

ولكن هناك مهن لا يختارها أحد، مع أنها من أهم أمور المجتمع، وفي المجتمعات الساذجة تتبلور عنها صيغ للمهن يقبلها المجتمع، فيجد متولّيها أنه دخل في معمعتها تدريجاً دون أن يدري حتى يكون في وسط الحلبة، أَهَّله له ما رآه أهل مجتمعه فيه من تميز أعدّه لأن يكون عارفة للقوم بينهم، يحكمهم عقله وأناته وتجرّده، وحسن تبصره بالأمور. أما المجتمعات المتقدمة فلم تجد الطريق إلى هذا مما جعل الحاكم حسيب هذه المناصب، يختار لها من يرى فيه الكفاية والاقتدار، ومن تتوافر فيه شروط العمل، ليكون عين الحاكم الناظرة، وأذنه السامعة، ويده العاملة، وهذا يستوجب إتقان الإختيار، وتلمس

أسبابه الدقيقة، وأن يُبنى على أعمدة صلبة، منها دقة التحري، وسعة الاستشارة، والحزم في القرار، فلا يُؤتى إلا بالعالم فيما يحتاج إلى علم، وبالشجاع فيما يحتاج إلى شجاعة، والنابه فيما يحتاج إلى نباهة، والفصيح فيما يحتاج إلى بلاغة، والمخلص فيما يحتاج إلى إخلاص، والأمين فيما يحتاج إلى أمانة، والموالي فيما يحتاج إلى ولاء، والنَّشِط فيما يحتاج إلى نشاط. وكل هذا يضمن إلى حد كبير حسن سير العمل، واستقامة الأمر، وتخفيف العبء عن الحاكم، وطَمأَنته إلى أن الأعمال تسير سيراً حسناً في القنوات التي أجراها فيها، وتأتي بالنتيجة المرجوة، وتوصل إلى الهدف المرسوم. وهذا يُمَكِّن الحاكم، بعد ذلك، إلى الالتفات إلى دفع العجلة إلى الأمام نحو النمو والتطوير.

والقضاء من أهم المناصب في المجتمع، وأهم ما يشغل ذهن الحاكم، لأنه يلمس حياة الناس في أهم جوانبها، يلمس دينهم، وأعراضهم، ورقابهم، وأموالهم، لهذا كان لابد من التحري في اختيار القضاة، والحزم والعزم في تعيينهم، فمسؤولية القاضي كبيرة، إذ من صلاحه يأتي صلاحٌ كثير، ويأتي من فساده فسادٌ عظيم، فالخلل في قدرته، أو كفايته، أو خلقه، أو سوء قصده، أو بعده عن الله، أو استهتاره بخلق الله، بذرةُ سوء تقلق المجتمع وتؤذيه، وهذا سوء في ذاته، وسوء في أن يصبح قاعدة وقدوة.

كان الخلفاء الأولون يتحرون، ويستشيرون عند اختيار القضاة، وكان العلماء يكرهون منصب القضاء، تحرزاً وتعففاً، مع ما فيه من أجر للمحسن، وثواب للمجتهد، ولا يكاد يوجد في

الأزمان الأولى من يقبل القضاء، أو يطلبه، كلهم ينفرون منه، ويعتذرون عن قبوله بأعذار مختلفة، ويحتالون لهذا بحيل مبتكرة، أَعفَتْ بعضهم، ولم تُفد آخرين.

ويكاد كل من ولي الحكم في المجتمعات الإسلامية الأولى يعاني من شح العلماء الصالحين لمنصب القضاء، أو من يقبله ممن يصلح له، وأحد هؤلاء الخلفاء الخليفة هارون الرشيد، فإنه عندما لم يجد قاضيا يقبل أن يتولى منصب القضاء سلك مسلك من سبقه من خيرة الخلفاء، فسد طريق الاعتذار على أحد العلماء، عندما توسم فيه الخير، ورأى فيه من الصفات الحميدة ما جعله يتمسك به، وعيّنه قاضياً، وكان ظنه فيه في محله، وهذه قصتهما:

«أحضر الرشيد رجلا ليوليه القضاء، فقال:

إني لا أحسن القضاء، ولا أنا فقيه.

فقال الرشيد: فيك ثلاث خلال: لك شرف، والشرف يمنع صاحبه من الدناءة، ولك حلم يمنعك من العجلة، ومن لم يستعجل قل خطؤه، وأنت رجل تشاور في أمرك، ومن شاور كثر صوابه. وأما الفقه فنضم إليك من تفقه به».

فَوَلِي، فما وَجَدَ فيه مطعناً»[(١)].

هذه صورة من الصور التي تُبيّن جانباً من جوانب هموم الحاكم الخيّر، وصورة من صور التأبِّي، ومحاولة الابتعاد عن منصب القضاء، لعظَم المسؤولية، وصورة من صور الإصرار والحزم والعزم على بصيرة.

***

(١) التذكرة لابن حمدون: ١/ ٤٣٤.

الرد الحق[1]

قد يوجه إليك قول حق، ويكون فيه ما يوجب الرد، إما لأنه سار، أو لأنه مؤلم، فترى أن من حق نفسك عليك أن ترد، وأن ترد بقول يسامق القول، ويقف شامخاً بجانبه شموخه؛ فيجد الناس في ما لم يكن سهلا، قولا متقنا، عقلا، وأسلوبا، ونغمة، يلمح التوفيق في ثناياه، والإتقان في حواشيه، والحق في برديه، والمنطق في كل أجزائه.

مثل هذا الرد المتقن، الملابس للقول الملقى، يطيل عمر القول، ويكثر قابليه، ويزيد مقتطفيه، والمستشهدين به، والمتابعين عملا لما فيه، تقديراً منهم للثمين، وأخذاً بالصادق

(١) نشرت في (المجلة العربية) العدد (٢٨٣)، شعبان ١٤٢١هـ، الموافق نوفمبر ٢٠٠٠م.

القيم، فهو بغية كل عاقل، وهدف كل حكيم.

وإجادة الرد تبدي ما في الرد من قيمة، وما فيه من جوانب مضيئة، وتجلو هذه الجوانب، فيظهر بهذا خفي الميزات.

وقد يكون القول المدون قيل، ووقع حقا، وجاء الرد عليه في وقته مباشرة، وبديهة سريعة، فيطفح مكيال الإعجاب به، والدهشة منه، في جانبيه؛ وقد لا يكون كذلك، وإنما جاء ابتداعا، واختراعا، وتلفيقا، وتأليفا، وأن أساسه فكرة في رأس أديب، أراد أن ينقلها من الخيال في ذهنه، إلى الواقع على الورق، أو في أسماع الحاضرين؛ لقد لمعت الفكرة في رأسه، واستحسنها، وأخذه بريقها، فاقتنصها، وألبسها اللباس الذي اختاره لها، فجاء بها منسكبة سوية، تصلح أن تُهدى، وتستحِق أن تقدم، وتبرز.

ويبقى الاعتراف بها من الآخرين، وإصابتها للهدف الذي أطلقت عليه، والغرض الذي صيغت من أجله، ومدى إتقان الصياغة لها بحيث يُنسي الإعجاب بها مدى صحتها، أو احتمال تلفيقها. والصياغة، ومدى فائدة المدلول، وصواب المعنى، هو الذي يجعلها بضاعة ثمينة، لا يسأل مشتريها في أي بلد صنعت، أو أي طريق سلكت، ولا من الجالب، ولا من حامل البضاعة؛ قيمتها فيها، التحدث بها فيه لذة، ومرامي معانيها فيها فائدة، وهذا هو المهم في الأمر.

والقول الأصل عما حدث فعلا قد لا يكون من السهل التمييز بينه وبين ما جاء متقنا في نحله، ففي الردود السريعة الذكية هناك من عُرف عنهم ما لا يستغرب ما يأتي منهم، أو عنهم، والناحلون

الواضعون كذلك بينهم من يجعله ذكاؤه يأتي بما لا يستغرب من الإتقان، والمقدرة على إلباس المصطنع ثوب الأصيل، دون أي علامة تنم عن الوضع والنحل.

وقد يأتي الكاتب على فكرة ساذجة، فتوحي له بفكرة مركبة عميقة ناضجة، فيسارع إلى اقتناص وسائل إبرازها، بثوب قشيب، أو أديم جذاب، يجعل الأيدي تمتد إلى اختطافها، والحظوة بها.

أوحى لي بهذا جملتان قرأتهما في أحد كتب الأدب القيمة، وجدت في فكرتهما منطقاً، وفكراً نيّراً، وأعجبني تطابق القولين في مسيرهما على جادة واحدة، في الفكر والأسلوب. وما قاله الإثنان جاء بعد أن قضي الأمر بينهما، ولو جاء القول قبل ذلك لكان الحديث مختلفاً، والمنطق مغايراً، ولرغّب كل واحد منهما فيما لديه، بدلا

من التنفير، الذي أقدما عليه. تُرى هل قلت قيمة الأرض المباعة عند المشتري، وصغرت قيمة النقود عند البائع، بعد أن شوهت الصورة في كلا الأمرين!

«باع رجل رجلا أرضا، فقال البائع:

أما والله، لقد أخذتها شديدة المؤونة، قليلة المعونة-يعني الأرض.

فقال المبتاع:

والله لقد أخذتها بطيئة الاجتماع، سريعة التفرق-يعني الدراهم»[1].

***

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ١٢٩.

الإيمان والفطرة[1]

الفكرة السليمة تؤدي إلى الإيمان، فإذا سَلمت مما يؤثر فيها، بأن يدخل عليها ما يشوهها، فإنها تُفرّع لهذا الإيمان فروعاً تنير جوانب النفس، وتذَكي الفهم، وتشحذ الفكر، لأنها الصفاء بنقائه، والأصالة بعينها.

والله - سبحانه وتعالى - خلق الخلق على الفطرة، إلا أن عوامل بشرية تربوية، أو عوامل تخص البيئة، تُميل الناس يميناً أو يساراً، فتخرجهم من المجال الطبعي، الذي وجدوا عليه عند الولادة، إلى مجال آخر مختلف؛ لهذا كان تقبّل بعض الناس الذين على الفطرة للرسالات السماوية الصحيحة، والأديان المتتابعة، عندما جاءت بها

(١) نشرت في المجلة العربية العدد (٢٨٤) في شهر رمضان ١٤٢١هـ، الموافق ديسمبر ٢٠٠٠م.

الرسل، سريعاً. لقد تقبلها الناس الذين على السليقة والفطرة، لأنهم وجدوا فيها صدى الطبيعة، وصورة الواقع الفطري، فكان معتنقوها الأوائل، والرواد المستجيبين لها، والمدافعين عنها، تصيبهم الدهشة، ويستولي عليهم الاستغراب عندما يرون ما يأتي به المعارضون من حجج واهية، يقاومون بها ما هو جلي وواضح، وطبعي. وسرعان ما يكتشف ذو السليقة الطاهرة دوافع العداء، وتكلف المقاومة والمدافعة، وما أخرج أصحابها عن جادة الحياد الصائبة؛ وما يخفونه من أغراض، تفضحها أعمالهم؛ وهؤلاء المستقيمون ذهنا يرون بوضوح ما تسير عليه جواد عقول المعارضين، وما عودوا عليه فكرهم من الانحراف عن طريق العقل، وجادة الصواب.

وكان أصحاب السليقة السليمة يرون بالفطرة

النور نوراً، والظلمة ظلمة، ويرون النور في الخير، والظلمة في الشر، ويرون الصلاح والاستقامة ميزة الجنس البشري، فالظلم ليس من شيمه، والاعتداء والإجحاف والأذى أمور لا تليق به، وكانوا يأنفون مما يقود إلى تصرف مشابه لتصرف الحيوان، وإلى خلق هو أقرب إلى الهمجية والفوضى، وحياة الغاب.

كانوا يتبصرون في الكون، وإتقان تنظيمه، فيدركون أنه لم يصنع نفسه، ولم يتبلور من ذاته، ولم يتشكل برأيه، ولابد له من صانع قادر، وضع له القوانين، التي لا تختلف إلا بأمره، ورأوا في المخلوقات حولهم من إنسان أو حيوان أو جماد، ما يدل على العدل والإتقان والاتِّساق، فأدركوا أن وراءها من أوجدها، وشكلها، ومن يحفظها، ويحميها من عبث العابثين. ومادام هناك حارس،

وهناك مخالف، يتعمد المخالفة، ويسعى إليها قاصداً، فيخرق بذلك التكوين السوي، فهناك عقاب لابد منه، ولابد من قادر على إنزال هذا العقاب بمن يستحقهُ، وبمقدار ما يستحق منه؛ ومن أتقن صنع هذا الكون، بما فيه، فقادر على حفظه بإتقان لا يستطيع تصوره إنسان، في دقته، وعظمته.

لهذا لم يستطع بعض الناس، وقد تدبر فأحسن التدبر، وفكّر فأحسن التفكير، إلا أن يصل إلى أن كل عمل غير سوي، يقدم عليه المرء مختاراً، عاصياً الأحكام الثابتة للكون، لابد أن يجد محاسباً، وهؤلاء وإن لم تتم الصورة عندهم، لأنهم لم يكونوا أنبياءَ ولا رسلاً، حاموا حول حمى الحقيقة، وقربوا من الصواب، ودخلوا حيز الإيمان بالخالق العادل القادر، من يجزي المحسن على إحسانه، والمسيء

على إساءته .

ولهذا : «كان رجل من العرب في الجاهلية ، إذا رأى رجلاً يظلم ، ويعتدي يقول : فلان لا يموت سويا ، فيرى الناس ذلك ، حتى مات رجل ممن قال فيه ذلك سويا ، فقيل له :

مات فلان سوياً .

فلم يقبل حتى تتابعت الأخبار .

فقال : إن كنتم صادقين ، إن لكم داراً سوى هذه تجازون فيها»[1] .

أجل إن مات هذا دون أن ينال عقابه ، وهو شرير مؤذ ، فلابد أن وقت عقابه لم يحن ، وأن هناك حياة أخرى ، وداراً أخرى تنتظره وفيها العقاب .

***

(١) التذكرة لابن حمدون : ١/ ٤١٣ .

الدنيا وأهلها[1]

الزمن مجال يجول الناس فيه، ويدورون: حياة وموت، وصحة ومرض، وقوة وضعف، وعلو ونزول، وغنى وفقر، ولا يمكن للمرء أن يدري، بدرجة التأكد، متى يكون في هذه الحالة أو نقيضها.

وإذا كان بعض الناس في أحسن صحة، وأوفى قوة، وأعلى مقام، وفي أشد الغنى، وأكمل السعادة، فهم في غمرة ساهون، لا يفكر أحدهم في اللحظة التي هو فيها، ولا يخطر بباله، أن الأمر قد يتغير، وإذا أوشك أن يأتي هذا بالبال أزاحه من ذهنه سريعا، حتى لا ينغص عليه ما هو فيه من بهجة وسرور، وعز وحبور، ونعم وافية، وترف ضاف، ومجد سابغ. ويستمر في الغفلة، ويوغل في

(١) نشرت في المجلة العربية، العدد (٢٨٥)، السنة (٢٥) في شوال: ١٤٢١هـ، يناير: ٢٠٠١م.

متعة الحياة الحاضرة، والبعد عن التبصر في أحوال الدنيا، حتى يفاجأ بما لم يكن له بالحسبان، فيسحب البساط من تحت قدميه، ويزاح الظل الظليل الذي كان يظله، والسعد الذي كان يجلله، ويجد نفسه في العراء.

في أول الأمر كل شيء حوله لم يكن يساعده على التدبر والتبصر، ومعرفة الزمن، وقابلية تغير الحياة فيه، وتقلبها بأهلها، وعدم ثبوتها على حال. ولعل من كان حوله كان سادراً مثله وغافلاً، إما طبيعة، أو جهلا، أو استغلالا لحياة ترف لا يريد أن يفقدها، يريد أن يتمتع بزاهي نبتها قبل أن يصوح، وبناضج ثمرها قبل أن يجف ويضيع، وبمائها الزلال قبل أن يغور أو يأسن.

وغفلة الناس تأتي غالبا من طغيان الحالة التي هم فيها، وقوتها أمام ضعفهم، وسيطرة سلطانها

على أجسامهم وعقولهم، مما جعلهم يعتادون على سلوك السهل، واجتناب الصعب، واقتناص المفرح، والبعد عن المزعج، واللين هربا من الخشن القاسي، نظرة منهم للقريب الحاضر، وتجاهلا للبعيد في المستقبل؛ يتعودون بهذا على ضحالة التفكير، وضيق الأفق؛ يكتفون بأقرب فكرة، مهما كانت ضحلة، وبعيدة عن الحقيقة، جرياً منهم إلى ما يبعدهم عن كد الذهن، فيقعون بهذا في ترف الفكر، وهو أسوأ ترف يقع فيه الإنسان، أوصله إليه ترفه المادي، وتوغله فيه، وتفننه إلى تتبع أنواعه.

وقد يأتي التغير في الحياة، والانتقال من حال إلى حال، تدريجاً، فيهيء هذا لصاحبه انتقالاً رحيماً، وقد يأتي التحول مفاجئاً، فيصدم المرء صدمة توقظه من نومه، وتزيل عنه سكرة أعمته عن حقيقة

الحياة، فيأتي التحول صاعقة نازلة، تدمغ الرأس، وتصفع الوجه، وتقصم الظهر، فتشل الحركة، وتضيع التوازن؛ فإذا أفاق المرء وجد نفسه في أرض غير أرضه، وصحبا غير صحبه، وبيتاً غير بيته، وفرشا غير رياشه، ومركوبا غير مركوبه، ولباساً غير لباسه؛ وسوف يظن أنه يتنفس هواء غير ما اعتاد عليه من هواء، وسيرى الأشياء غير الأشياء، وسيسمع أصواتاً غير الأصوات، ورجع الصوت سوف يخيل إليه أنه غير ما عرف، وسوف تكون الشمس في نظره غير الشمس، والقمر غير القمر، وفائدتهما غير فائدتهما.

وسيجد في هذه الحالة التي تردى إليها أن ما كان غير مجز بالأمس، أكثر من مجز اليوم، وما كان لا يطلب احتقاراً أصبح من أعز الأمنيات، وما كان يتجاهل لتفاهته أصبح مطمح الأنظار، وما كان

وضيع القيمة أصبح عاليها، وما لم يكن معروفاً بالأمس تهاوناً أصبح يجرى خلفه لمعرفة دقائقه وتفاصيله، وما لا يخطر بالبال أصبح الشغل الشاغل له، وما لم يؤبه به أصبح ملء السمع والبصر، وينقب عنه، ويبحث عنه، وعن كل ركن من أركانه، وكل جزء من أجزائه، وكل ذرة من ذراته.

أصبح طعم الأكل اليوم غيره بالأمس، والنوم غير النوم، والجلوس غير الجلوس، والوقوف غير الوقوف، والسير غير السير، يجد المرء أن جسمه قد تبدل، فالأعضاء غير الأعضاء، فالشعر غير الشعر، والجلد غير الجلد، والحواس غير الحواس، وما لم يكن يؤكل صار المفضل، والفاتح للشهية، وما لم يلبس صار مساوياً للحرير والخز، إذا لم تستطع تصور كل ذلك فاقرأ القصة التالية:

«قال محمد بن عبد العزيز الهاشمي :

دخلت على ابنتي في يوم أضحى ، وعندها امرأة برزة ، في أثواب رثة ، فقالت لي :

أتعرف هذه؟

قلت : لا .

قالت : هذه عبّادة أم جعفر بن يحيى بن خالد .

فسلمت عليها ، ورحبت بها ، وقلت لها :

يا خاله ، حدثيني ببعض أمركم .

قالت : أذكر جملة فيها اعتبار وموعظة لمن فكر :

هجم عليَّ مثل هذا العيد ، وعلى رأسي أربع مئة وصيفة ، وأنا أزعم أن جعفرا ، ابني ، عاق لي ، وقد أتيتكم ، والذي يقنعني جلد شاتين : أحدهما شعاراً ، والآخر دثاراً»[1] .

***

---

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح : ص ٨٣-٨٤ .

عمـــق الإيمـــان[1]

الناس في إيمانهم درجات، منهم من إيمانه في أعلى الدرجات، ومنهم من هو في أدناها، ومنهم من هو في أوسطها؛ وهذا التفاوت في درجات الإيمان يؤثر في عمل الإنسان، ويتحكم في نتائجه. وقوة الإيمان عامل مؤثر، يصبغ الأعمال، ففي الأمور التي تحتاج إلى عزم يساعد عمق الإيمان على اتخاذ خطوات باتة وسريعة، وما يحتاج إلى صبر وجلد تساعد قوة الإيمان على الغرف منه حتى الثمالة، وفي الكرم تساهم قوة الإيمان في البذل لوجه الله، رحمة بالضعيف، وشفقة على الفقير، وصلة للرحم؛ وهكذا الأمر في كل فضيلة، وفي كل أمر يرمي إلى حسن الخلق، وجودة التعامل مع الناس.

(١) نشرت في المجلة العربية بالعدد (٢٨٦)، ذو القعدة ١٤٢١هـ الموافق فبراير ٢٠٠١م.

والناس في قوة إيمانهم، وحيازة الدرجات فيه، متباينون، فقد يدرك العالم أثر إيمانه أكثر مما يدركه غيره، ممن لم يبلغ من العلم شأوا، أو لم يغرف من معينه بما يكفي، ولم يمر بالتجارب التي عرفته بالله ـ سبحانه وتعالى ـ وإدراك كنه ما يأتي منه، والأسباب التي تكمن وراء ذلك، والمقاصد خلفه؛ ولهذا يأتي أحد الناس راضيا بقضاء الله وقدره، استسلاما وطاعة، ويأتي آخر راضياً بما حل به علماً ومعرفة وبصيرة، لما وفقه الله من معرفته نتيجة طلب العلم، والتبصر في التجارب، وما تأتي به، وما تتمخض عنه، وهذا ما جاء من القاضي شريح، واسمه أبو أمية شريح بن الحارث، وهو من أشهر القضاة، وشهرته جاءت من غزارة علمه، وسعة اطلاعه، وطول مدته في القضاء، وارتبطت بمن ولي لهم القضاء، وبالأحكام التي

أصدرها، وما عرفه الناس فيه من ذكاء، وما عالج به بعض المعضلات من فطنة، فالقضاء لا يكفي فيه معرفة النصوص، فالنصوص تصبح محدودة الفائدة إذا لم يواكبها فطنة وذكاء، ونباهة وحذق، ودهاء وحزم، ولهذا جاءت الشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يتولى القضاء قاسية، مما حدا ببعض العلماء، تورعاً وخشية، أن يتنصلوا من قبول منصب القضاء، وتعرض بعضهم للأذى من جراء ذلك، ولعل قليلين منهم في الماضي قبلوه إلا مرغمين، ورجوا رحمة الله بهم وتوفيقه.

وشريح ولي القضاء للخليفة عمر بن الخطاب، ولعثمان ولعلي ولمعاوية، ولم يترك القضاء إلا في أيام الحجاج، في حدود عام ٧٧هـ، ولعل ذلك لكبر سنه. وقوة إيمان شريح التي جاءت عن علم، وعن تبصر، وعن تدبر في التجارب، تتمثل

في قوله الآتي:

«إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله - عز وجل، عليها أربع مرات، أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع، لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني»[1].

***

(١) الفرج بعد الشدة: ١/ ١٥٨.

ردٌّ على قول [1]

أغرمت الأمم المتحضرة بتدوين الردود المضيئة، على بعض التساؤلات الملقاة، أو الأقوال الموزونة؛ وقد يكون بعضها حدث، وبعضها لم يحدث، ولكن جاء نتيجة تفكير عميق، من أديب، برأسه فكرة، وبيده قلم، وأمامه ورقة، فدون عليها ما خطر بباله من فكر؛ ولتكون الفكرة مقبولة، مؤدية للغرض، ومصيبة للهدف، يصوغها بقالب قصة، ويبرزها في صورة جدل موزون.

ومثل هذه القصص يُستوجب فيها، لقبولها، أن تكون طريفة، تتسم بنتاج فكر ذكي، وأن تدل على سرعة بديهة، وفائدة متكاملة، وهذا هدف

---

(١) نشرت في المجلة العربية: العدد (٢٨٧)، ذو الحجة ١٤٢١هـ، الموافق مارس ٢٠٠١م.

أساس، ولابد منه. وقد دون من هذه الردود عدد كبير، ولايزال يدون في الكتب، وفي الصحف، وفي وسائل النشر الأخرى، ويعرض ما يعرض لذاته، إما لطرافته، أو لما فيه من معجب مدهش.

والأمم تفتخر بما يأتي من أفرادها في هذا المجال؛ لأنه يدل على فكر ثاقب، وخيال مغرب، وذهن صاف. وبعض الأمم، أو الأقطار، يبرز فيها أناس يشار إليهم بالبنان، في هذا المجال، فيتلقف الناس منهم ما يقولون، ويسارع بعضهم إلى تدوينه، أو يتناقلونه استشهاداً، أو يتداولونه تمثلا وإعجابا؛ يأتي بعضه شعراً جيداً، وأحياناً نثراً، وقد ينقل إلى المسرح رواية وتمثيلاً.

ويكثر، بدرجة ملحوظة، تدوين هذه الردود السريعة، الذكية، في بعض الأمم، لأن وسائل النشر، والتدوين عند بعضها متقدمة، فيروى

بذلك العطشان من المتشوقين، أو المتتبعين، خاصة إذا جاءت هذه الردود من أناس عرفوا بمثل ذلك، وهناك أمثلة كثيرة لا تكاد تحصى، مثل ردود الشيخ عبدالعزيز البشري، وحافظ إبراهيم وغيرهم كثيرين.

والردود مظهر من مظاهر نتاج الفكر الأدبي، وينال النصيب الأوفى من التدوين، ومن متابعة القارئين، ومن تناول الرواة، لما فيه من جاذبية، أحد مساربها أن القارئ أو السامع يضع نفسه موضع المتسبب في الجواب. والقول الأساس، الذي استثار الرد، عادة مقنع، عند أول وهلة، ولا يوحي بأنه سيأتي عليه اعتراض من أحد، فهو على هذا مقبول، وليس هناك مناص من تقبل ما يرمي إليه، والاستجابة له، والتسليم بما فيه؛ وهذا الشعور فقط عند القارئ المعتاد، ولكن غير

المعتاد ممن وهبه الله سرعة بديهة، وذكاءًا حاداً، وذهناً صافياً، وملكة ناضجة، تبحث بسرعة فائقة على ما في مخزون الذاكرة من معلومات، فالأمر مختلف، والقول يصبح، عند صاحب هذه الميزات غير مقنع، بل مردوداً، ويأتي الرد دافعاً، يمحو كل أثر للأول، ويحل محله بثقة، وتمكن، مثل قول الفيلسوف في القصة الآتية، ورده على الفيلسوف الآخر:

«رأى فيلسوف رجلاً يعظ سكران، ويقول له:

أما تستحي أن تكون سكران؟!

فقال له الفيلسوف:

وأنت أفلا تستحيي أن تعظ سكران؟!

قليل منا من لا يتفق مع الفيلسوف الأول الواعظ للسكران، لما في السكر من ضرر على

السكران، وربما غيره؛ لما يأتي من أفعال مشينة، تضر بالسكران، وبأهله، وبقومه؛ وإن السكارى أنفسهم، بعد زوال أثر السكر عنهم، يتحرجون مما بدر منهم، وعرفه الناس عنهم. ولهذا يهز الإنسان المعتاد رأسه عند سماع قول الفيلسوف الأول، موافقة له، ولكن الفيلسوف الثاني لم يكن رجلا معتاداً، بل فيلسوفاً ذكياً لمح ما لم يلمحه الفيلسوف الأول، ولا يفل الحديد إلا الحديد، فالفيلسوف الأول طغى على تفكيره العقل الشنيع، فهاجمه، والفيلسوف الثاني رأى أن هذا الدواء نفسه إنما هو داء، فهاجمه بما لم يخطر على بال الفيلسوف الأول، فجاء الرد مفاجئاً، ومصيباً للهدف، وغلب إشعاعه على نور الأول.

الفيلسوف الأول في نظر الثاني مخطئ، لأنه ينصح من لا وعي عنده، فهو يضرب في حديد

بارد، وكان عليه أن ينصح السكران بعد أن يفيق من سكره؛ لقد وضع الفيلسوف الأول زرعه في أرض سبخة، ولهذا لا يتوقع لزرعه أن ينمو ويثمر، وما فعله الفيلسوف الثاني هو تنبيه الأول إلى عدم توفيقه في اختيار الوقت الأمثل للنصح.

***

اللقب والنبز به(١)

النبز باللقب باللغة العامية عند أهل نجد (المعيارة)، وعند أهل الحجاز (المعايبة)، والنبز باللقب كان سائداً في الجاهلية بين العرب، فهناك «المرقَّش»: (عوف بن سعد بن مالك)، و«الممزَّق» (شأس بن نهار العبدي)، و«المخرِّق»: (عباد)، و «النابغة». وكل لقب وراءه سبب. ويبدو أن التلقيب كان ظاهرة مقلقه، وداعي فرقة ونفور، بدليل أنه ورد النهي عنه في القرآن الكريم في سورة الحجرات في الآية (١١)، إذ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ورغم هذا النهي الصريح بقيت الألقاب

(١) نشرت في المجلة العربية، العدد (٢٨٨) في محرم ١٤٢٢هـ، الموافق: أبريل ٢٠٠١م.

وإطلاقها، مغرية للناس بالإقدام عليها، وإحيائها بدلا من إماتتها، وبقيت تَعْبُرُ القرون إلى وقتنا هذا؛ وهي عندنا في كل مكان إلا أنها في بعض المناطق أو المدن أكثر رواجا من مناطق ومدن أخرى، وفي بعض المدن بقيت لازمة لا يكاد يفلت منها أحد، فإن لم يحمل اللقب صغيراً حمله كبيراً، ويسمى به الشخص نتيجة زلة لسان، أو حركة نابية، أو عيب خُلُقي أو خَلقي، وسبب اللقب اليوم هو السبب بالأمس، والتأثير هو التأثير، ومن قارن ما ذكره الثعالبي عن الألقاب في بحثه الوافي، في كتابه: «لطائف المعارف» وجد التشابه الكامل بين ما كان وما هو كائن اليوم (من صفحة ٣٨ إلى ٥٤).

في العصور الأولى من الإسلام نجد كثيراً من الشعراء حملوا ألقاباً ألصقت بهم، ولم يسلم عِلْيَة القوم من ذلك، فمثلاً: «النعثل» (طويل اللحية)

سمي به عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ، و «خيط باطل» كناية عن الطول المفرط مع دقة، سمي به مروان بن الحكم، و «أبو الذبان» لقب به الخليفة عبدالملك بن مروان، لبخر في فمه، ولبخله سمي «رشح الحجر». وهناك «لطيم الشيطان» و «عجوز اليمن» وغير ذلك.

وتسللت الألقاب من العصر الأموي إلى العصر العباسي فرأينا مسلم بن الوليد يلقب «صريع الغواني»، وسمي الخليفة أبو جعفر المنصور «أبو الدوانيق»، وموسى الهادي «موسى أطبق»، وهناك «أترجَّة» و «شحم الحزين»، و«كعب البقر»، و «كرب الدواء» و «عَرَق الموت»، و «المبرّد»، و «نفطويه» وغير هؤلاء كثير.

وبعض الألقاب مرفوضة ممن لقب بها، وقد لا تقال في الوجه، وإنما يشار إليها في غيابه، إما

اختصاراً للاسم للدلالة على الشخص، خاصة إذا كان هناك عدد من الأشخاص يتماثل فيهم الاسم واسم الأب والجد، فاللقب يُصبح أداة تعريف وتمييز، فإذا كان هناك ثلاثة أو أربعة أسماؤهم صالح بن علي بن محمد بن أحمد، فأحدهم مثلا سوف يلقب: الأعرج، والثاني: سنام البعير، والثالث: ربع الكيله، وهكذا. وكلمة واحدة تغني عن ست.

وقد يكون اللقب حميداً، فلا يرى المقول فيه بأساً بإطلاقه عليه، ومناداته به مثل «المخلص» أو «الشجاع» أو «الطويل» أو «الغرينيق» أو «الملحم» أو «الدهينة» أو «الواصل» أو «المعجل» أو «السريع»؛ بل إن بعض الألقاب لجمالها اتخذت فيما بعد أسماءًا يُسمى بها الأطفال منذ ولادتهم، وقد يمحو اللقب اسم الأسرة، ويحل محله، حتى

أن الأصل مع الوقت يصبح مجهولاً أو فيه اختلاف .

ومن الأمثلة التي تُري كيف بقي اللقب وتوارى الاسم، ماورد في القصة الآتية :

«حدث هشام بن الكلبي ، قال :

كنت يوما عند الشرقي بن القطامي ، فقال من منكم يعرف علي بن عبد مناف بن شيبة بن عمرو ابن المغيرة بن زيد؟ وهو من أشرف الناس بعد رسول الله ﷺ .

فقال القوم : والله ما نعرفه .

فقال هشام : هو علي بن أبي طالب ، وأبو طالب عبد مناف، وعبدالمطلب اسمه شيبة، وهاشم اسمه عمرو، وعبد مناف اسمه المغيرة، وقصي اسمه زيد(١) .

ومن الأمثلة على اشتهار مدن، أومناطق

(١) لطائف المعارف: ٧٨.

بالتعلق بإعطاء الألقاب القول الآتي:

«يقال إنه لا يعرف لأهل بلدة من الألقاب ما لعامة أهل بغداد، وأهل نيسابور، فإنهم أكثر الناس تلقيباً قديماً وحديثاً»[1].

وأهل البصرة اشتهروا بإعطاء الولاة ألقاباً، والقصة الآتية دليل على هذا، وعلى مدى تأثير اللقب على الملقَّب، خاصة إذا كان والياً، يسعى لتثبيت هيبته منذ تعيينه:

«لما ملك مصعب بن الزبير العراق، ودخل البصرة، خاف أن يلقبه أهلها كما لقبوا «القُباع» (الواسع)، لقبوا به الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة؛ فقال: يوماً في خطبته:

إنكم قد لهجتم بتلقيب أمرائكم، فلقبّوني: الجزار، فوالله، ما بلغني عن أحد منكم لقب إلا

(١) لطائف المعارف: ٥٤.

نَحَرتُه كما ينحر الجزور.

فأحجموا عن تلقيبه».

ومن القصص التي تدل على ثبوت الألقاب، وسرعة جريانها على اللسان، ومزاحمتها للاسم الأصل، القصة الآتية:

«عبدالله الفقير هو عبدالله بن مسلم أخو قتيبة ابن مسلم، لقب بذلك لأن أخاه قتيبة كلما قسم الغنائم بخراسان على أصحابه وقومه قال له عبدالله:

أيها الأمير وأنا رجل فقير، فزدني.

فلقب بالفقير، فولاه قتيبة سمرقند، وقال لأصحابه:

أترون هذا اللقب يزول عن أخي الآن، وهو والي سمرقند؟

قالوا: لا والله أيها الأمير، ولو ولي خراسان،

فإن اللقب ألزم له، وألزق من الدَّين، وحُمى الرِّبع، وشعرات القصّ: (شعرات رأس الصدر)[1].

***

(١) لطائف المعارف: ٤٧.

من القلب إلى الرب[1]

الأصمعي أديب، طبق ذكره الآفاق في زمنه، وبعد زمنه، لا يتفوه بكلمة إلا ويتخاطفها الناس؛ ومن أسباب ذلك أنه يقتصر على ما يرويه الآخرون، أو ما يتوقعه السامع، ولكنه يقتنص الغريب، ويركض وراء ما ندّ عن القاعدة، وشذ عن المتعارف عليه، وأغلب قصصه من البادية، وشواهده من لغة أهلها، ونوادره من أوابد مجتمع مضارب الخيام، ومن الترحال إلى أهلها، والحل بينهم، ومشاركتهم خصبهم، وقحطهم، وجدبهم، ورحيلهم، وسمرهم، وأفراحهم، وكرمهم. ونوادره هذه جاءت أحياناً عبئاً على التراث الذي كتبه، لأن قبول ما يأتي منه أغرى

(١) نشرت في المجلة العربية: العدد (٢٨٩) في صفر ١٤٢٢هـ، مايو ٢٠٠١م.

غيره بنحت القصص، وإلصاقها به، حتى كاد يختلط هذا بذاك، ولعله في بعض ما جاء منه اختلط فعلا.

وقد اقتنص الأصمعي حادثة، قال إنها حدثت أمامه، وأنه شاهد عليها، تكشف داخل نفس الإنسان، وتبين ما عليه سويداء القلب، من نية صافية، وخلق يقرب من الله، لطاعة صاحبه، وتجرده للصلة بربه؛ وتكشف حرص الإنسان إسماع أنّته إلى من لا تخفى عليه خافية، ومن يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، تجرداً واستسلاما؛ وتكشف أن القول ليس هو المهم، ولا رصه، ولا تزويقه، ولا تنميقه وتحسينه، وإنما يكفي التعبير الساذج عما في داخل النفس، وما يجول في الصدر، وما يشغل الذهن، وصداه في الجنان.

وما حدث لهذا الحي من العرب، الذين قص الأصمعي قصتهم، حدث مثله لغيرهم، وأقرب مثل لهذا عندنا استغاثة محسن الهزاني، الشاعر الذائع الصيت، وقصة استغاثته متواترة، أبقاها حية في الأذهان أن عمودها الفقري قصيدة، والقصيدة سجل وديوان؛ يقال إن أهل بلدته انحبس عنهم المطر سنوات، وأضّر بهم ذلك ضرراً بالغاً، فعزموا على الاستغاثة، ولشدة حاجتهم لها استعدوا لها، ومن جملة ذلك أنهم طلبوا من محسن ألا يخرج معهم للصلاة، لما يرون فيه من لهو، وحب للقصيد، والغزل، فسمع وأطاع، واستغاثوا، ولم يأتهم مطر، فقرر محسن أن يستغيث، وفي ذهنه منهج أمّل معه القبول، فجمع تلاميذ الكتاتيب، والحيوانات السائبة المصابة، وخرج بالجميع، ونظم خطبة جعل

صلبها أسماء الله الحسنى ، ناداه ـ سبحانه وتعالى ـ بها ، وبدأها بقوله :

دَعْ لَذِيذَ الكَرَى ، وانْتَبِه ، ثُمَّ صَلّْ

وَاستَقِم في الدُّجَى وابْتَهِل ثُمَّ قُل

يَا مُجِيبَ الدُّعَا يَا عَظِيمَ الجَلاَلِ

يَا لَطِيْفاً بِنَا دَائِماً لَم يَزَل

وَاحِداً مَاجِداً قَابِضاً بَاسِطاً

حَاكِماً عَادِلاً كُلَّ مَا شَاءَ فَعَل

وهي طويلة ، عامية أقرب للفصيح ؛ ويقال إن المطر في اليوم نفسه ، أو في الساعة نفسها ، انهمر عليهم مدراراً .

وقصيدة الاستغاثة لمحسن طويلة ، وافية ، مؤثرة ، صاغها ذهن شاعر أديب ، عرف أسماء

الله الحسنى، ودعاه بها؛ اما الأعرابية العجوز، فخاطبت ربها بعبارات متواضعة، هي غاية ما عندها، وما يصل إليه ذهنها؛ ولكن قولها كشف عن إيمان عميق، وثقة بربها متناهية، والقصة كالآتي:

«ذكر المدائني في كتابه (وَاعْتَقَدَ أنها رواية للأصمعي):

نزلت بحي من كلب مجدبين، قد توالت عليهم السنون، فماتت المواشي، ومنعت الأرض من إخراج النبات، وأمسكت السماء قطرها، فجعلتُ أنظر إلى السحابة، ترتفع من ناحية القبلة، سوداء متقاربة، حتى تطبق الأرض، فيتشوف لها أهل الحي، ويرفعون أصواتهم بالتكبير، ثم يعدلها الله عنهم مراراً.

فلما كثر ذلك خرجت عجوز منهم، فعلت

نشزاً من الأرض، ثم نادت بأعلى صوتها:

«يا ذا العرش، اصنع كيف شئت، فإن أرزاقنا عليك.

فما نزلت من موضعها حتى تغيمت السماء، غيماً شديداً، وأمطرت مطراً كاد أن يغرقهم، وأنا حاضر»[1].

***

---

(١) الفرج بعد الشدة: ١/ ٢٨٦.

بريـــق الفضيلـــة [1]

الفضيلة، والمروءة، والشهامة، والشجاعة، وجميع الصفات الحميدة، أنواع، بعضها يُلمَح في الأمور العظيمة، وبعضها يُرَى في الأمور الصغيرة، وبعضها يطل من الأفعال المهمة، وبعضها يبدو في الأمور الطفيفة؛ ولكنها، في كلا الأمرين، تبقى عظيمة في مدلولها، وافيةفي نتائجها، فوائدها تلحظ، وثمرها يُرى، خيرها عميم، ونفعها شامل.

والمجتمعات تعلو قيمتها بتوافر الفضائل بين الأفراد فيها، وتهبط بانعدام هذه الصفات فيهم؛ في الفضائل تكمن السعادة، التي لا تحدها حدود، وفيها تتوافر الطمأنينة، التي لا يعرف

---

(١) نشرت في مجلة «الفيصل»، العدد (٢٥٨) في ذي الحجة ١٤١٨هـ، الموافق أبريل ١٩٩٨م.

مداها، والأدب العربي مليء بالقصص التي تحكي مواقف أناس اتصفوا بفضيلة من الفضائل، وحمد قولهم في ضوئها، أو أشيد بفعلهم في حماها، وسجل الزمان لهم مواقف، وحفرها في صفحته مضيئة، فتخللته سمعتها، إلى أن وصلت إلينا ببريقها المبهج، ونورها الساطع، لم يَخْبُ ضياؤها، ولم يبهت لونها، أو يزول عنها بهاؤها، أو يحول دون رونقها حائل، أو يقف دون حسنها حاجز؛ وبقيت لسان حال صدق محمود لمن يقرؤها، وأصبحت محط فخر لأجيال ينتمون إلى من سبقوا إلى هذه الفضائل.

وبعض هذه الصفات الفاضلة اتسم بها أصحابها، وعرفت عنهم، وعرفوا بها، بعد أن دفعوا ثمنا غاليا، فقد يكون ثمن كسبها تعرض رقاب بعضهم للقطع، أو أجسامهم للتعذيب، أو

حياتهم للأذى والإهانة. ومع هذا أقدموا على ما أقدموا عليه، وليس معهم دافع إلا الحرص للوصول إلى الهدف النبيل، الذي حسنت نيتهم تجاهه، ووضعوه نصب أعينهم، وأغمضوا جفونهم عما عداه من العوائق، ووطنوا نفوسهم على ركوب الصعب، لأن لذة المنتهى أنستهم ما قد يكون من ألم المبتدأ؛ فكان لهم ما أرادوا، بعون من الله، المطلع على خفايا النفوس، والذي لا يضيع أجر من أحسن عملا.

ومن أصعب المواقف الوقوف لقول الحق أمام حاكم غاضب، ملأ الحنق نفسه، لعظم الجرم الذي أقدم عليه من استحق هذا الحنق. ويزيد الأمر صعوبة، وتعظم الوحشة، إذا كان الحاكم في مبتدأ تأسيس حكم يلزم له زرع الهيبة، ويكون الحزم أساساً له، والقوة لحمته

وسداه، فيُغضي الحاكم عن أي جانب يبدد عزمه، أو يعدل تصميمه، أو يضعف من اندفاعه.

وأبو جعفر المنصور، (ت: ١٥٨هـ)، ثاني مؤسسي الدولة العباسية، عرفت عنه الشدة، واتصف بالحزم، ليبني دولة قوية على أنقاض الدولة الأموية المتلاشية، بسبب ضعفها. وتفكك أجزائها. لقد جاء بسياسته الحازمة ليسلك طريقاً غير ما سلكه الأمويون في آخر حكمهم، فإن كانوا يعفون فإن من الحزم عنده ألا يعفو، وإن كانوا يتحققون قبل العقاب، فهو يأخذ بالظنة، وإذا كانوا يجلبون الناس بالعطاء فهو يجلبهم بالقوة.

إذا كان هذا هو ما كان في ذهنه عندما وصلت إليه الخلافة، فإن ممارسة أعمالها، وتجاربه في حمل أعبائها، قد فتح له أبواباً كانت مغلقة أمام فكره، فلقد هذبت سياسته التجارب، وخففت من

غلوائه الأيام، وغلبت عليه الفطرة، وأدركته بركة الإسلام، فأصبح يؤمن بالاستماع لصوت الدين، وفيه العقل والفضيلة، ويسمح لهذا أن يعلو على صوت السياسة، فأدى به هذا إلى أن تغمره شآبيب الفضيلة طائعاً عندما يلمح بوادرها، وسعيداً عندما يرى ضياءها، فيسمح لنور الحق أن تلج أشعته إلى قلب أراد له أن يكون قاسياً، فتداركه الله بلطفه وآلائه.

رجل مسلم أمام رجل مسلم، ورجل عالم مؤمن أمام رجل غافل عن فضيلة ران عليها ظلام الغضب، فأطفأ بريقها، ونزل عليها صدأ الحنق فأخفى أديمها، فأخذ العالم يزيل الظلمة، ويجلي الصدأ، تدريجا، حتى عاد البريق، وصحة الأديم، فجاء هذا بالثمرة المرجوة. والقصة التي وراء هذا طريفة نبيلة، إن صحت:

«قال عمر بن حبيب العدوي :

كنت في وفد أهل البصرة، لما قدموا على المنصور، يسألونه أن يولي عليهم قاضيا، فبينا نحن عنده إذ جيء برجل مصفّد، يحمل في الحديد، فوقف بين يديه، فغلّوا يده إلى عنقه. فساءله طويلا، ثم بُسط له نطع، وأقعد عليه، ونحن ننظر إليه، فأمر بضرب عنقه، والرجل يحلف له، وهو يكذبه. ولم يتكلم أحد من الجمع. فقمت، وكنت أحدثهم سناً، فقلت :

يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في الكلام؟

فقال : قل.

قلت : يروى عن ابن عمك رسول الله ﷺ أنه قال : من اعتذر إليه أخوه المسلم، فلم يقبل عذره، لم يرد على الحوض. وقد اعتذر إليك، فأقبل عذره.

فقال: يا غلام، اضرب عنقه.

فقلت: إن أباك حدثني عن جدك عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ تحت العرش: ليقم من كان له عند الله يد، فلا يقوم إلا من عفا عن أخيه المسلم.

فقال: آلله أنّ أبي حدثك عن جدي عن ابن عباس، عن النبي ﷺ بهذا؟

فقلت: آلله إن أباك حدثني عن جدك عن ابن عباس عن النبي ﷺ بهذا.

فقال أبو جعفر: صدق أبي عن جدي عن ابن عباس بهذا. يا غلام خلّ عنه، وأمر له بجائزة، وولاني قضاء البصرة»[1].

***

(١) التذكرة الحمدونية: ٤/ ١٠٥.

الشــــورى[1]

الشورى نظام ارتضاه الإسلام أن يكون من بين أسس الرأي المقبول، الموصى به، والمحثوث عليه؛ ومن بين أسباب الصواب في القول والعمل؛ ارتضاه الإسلام وسيلة من وسائل نجاح القصد، وإصابة الهدف، في كل أمر، صغر أو كبر، عظم أو قل.

والشورى منطلق فكري، دل على فائدته العقل الزاكي، والفهم السليم. وأوصل إليه التدبر المتبصر؛ لأنه يجمع عصارة الآراء، وخلاصة الأفكار، ويوصل إلى نضجها، ويبعد، إذا ما أُتقن الأمر، عن الزلل، ويجنّب المستشير الخطأ. والشورى تنير الطريق، وتفتح الأبواب، وتزيل

---

(١) مجلة الفيصل : العدد (٢٥٩)، المحرم ١٤١٩هـ ، مايو ١٩٩٨م.

الغشاوة عن العين، وتقضي على الغموض، وتزيح حواجب الأستار؛ يسلم المرء بسببها من مفاجآت لم تكن تخطر بالبال، وتوفّي ما قد يكون ناقصاً، وتنضج ما كان فجّاً، وتصقل الخام، وتزيل الصدأ، وتقي من الزلل؛ بها يتوافر العذر، ويُتفادى العتب، وبها يخف حمل المسؤولية، بالمشاركة فيما تأتي به الاستشارة من رأي، والشورى وِجَاءٌ من الوهم، وحماية من الحيرة، وتسهيل للصعب، وجلاء للغامض.

لهذه الأمور النّيّرة جعلها الإسلام ركنا من أركان الفطنة، وعماداً للاستقامة، ودليلا على سلامة التفكير، ونبراساً لصحة العقل، من اختارها كسب، ومن تجاهلها خسر.

والمرء يستشار في مهنته، لطول تجربته، وحسن أدائه لعمله برزانة وعقل، ويستشار لعلمه،

وتفقهه في الأمر الذي يستشار فيه؛ ويستشار لما يُعرف عنه من عقل، وحكمة، واستقامة.

والاستشارة تأتي عند الأمر العصيب للخروج من مأزق، أو تفادي أمر خطير، وتأتي للاستنارة لتحسين وضع، أو تجميل حال، وتأتي عندما يصل المرء إلى رأي يريد أن يطمئن إلى أنه صائب، ويستشير المرءُ ليقضي على التردد، ويَدخل حيز الجزم.

وهناك من تعودوا على الاستشارة، وجعلوها نصب أعينهم، وديدنهم، إيماناً منهم بالمبدأ الذي تدعو إليه، وأنها تؤدي إلى نتائج حميدة فيه، ولمساً للنتائج التي يصلون إليها، واعترافاً بفضلها. وهناك من لا يلجأ إليها إلا في الملمات، اعتقاداً بأنها تلزم فقط في الأمر العظيم، والخطب الجلل، وهناك من لا يفكر فيها أبداً، ويندم عندما يكتشف

أنه خسر، لأنه لم يستشر، ولو فعل فربما ربح.

والمرء قد يكون حراً في أن يستشير، أو لا يستشير، إذا كان الأمر يخصه هو فقط، وفي حدود أمور شخصيته، ولكنه ليس كذلك إذا كان يخص آخرين، ويلمس المصلحة العامة، والقدوة الأعلى في هذا الرسول ﷺ الذي جعل للشورى مقاما، وأعطاها قيمة، وبيّن فضلها، قولا وفعلا.

وعلى هذا فالحكام هم أولى الناس بالاستشارة ويليهم المسؤولون عن جانب من جوانب الحياة المختلفة، التي تلمس حياة الناس، في معيشتهم، واقتصادهم، وأمنهم، وصحتهم، وتعليمهم، وأمورهم الاجتماعية، وما يجلب لهم نفعاً، وما يبعد عنهم الضرر، وما يأتي لهم برغد العيش، والازدهار، ويبعد عنهم شظف العيش والعوز.

وما مجالس الشورى في الدول، وما المجالس

النيابية الحديثة، إلا صور من صور الجهد في إيجاد وسائل استشارة تسد فراغاً في سير الحياة الحديثة، في هذا العصر الذي اشتبكت فيه الأمور، وتوسعت، وتداخلت، وتماسكت وتعقدت.

والمستشار مؤتمن، فعندما يستشار فإنه يحمل أمانة عظمى، من مستلزماتها حفظ السر، والنصح للمستنصِح، وعدم التفريط في بذل الجهد فيما يكون فيه الصالح؛ والغش في الاستشارة فيه إثم عظيم، ويوجب الاحتقار، والاشمئزاز، ولهذا يحرص المستشار أن يكون مخلصاً للفكرة، باذلاً جهده في التبصر، ومحاولة الوصول إلى ما ينفع.

ولمدى أهمية الأمانة في المشورة، والدقة فيها، وتوخي مصلحة المستشير، نسوق القصة الآتية:

«استشار زياد بن عبدالله الحارثي عبيدالله بن عمر في أخيه أبي بكر أن يوليه القضاء، فأشار عليه

به؛ فبعث إلى أبي بكر فامتنع عليه، فبعث زياد إلى عبيدالله يستعين به على أبي بكر، فقال أبو بكر لعبيدالله:

أنشدك بالله، أترى لي أن ألِيَ القضاء؟

قال: اللهم لا.

قال زياد: سبحان الله! استشرتك، فأشرت عليّ به، ثم أسمعك تنهاه!

قال: أيها الأمير، استشرتني، فاجتهدت لك رأيي، ونصحتك، واستشارني، فاجتهدت له رأيي ونصحته»[1].

***

(١) عيون الأخبار: ١/ ٨٤.

لاطيــــرة[1]

عندما يسيطر الجهل، وتضعف الأنفس، يتعلق الناس بالوهم، يداوون به ما يشكون منه حقيقة أو وهما؛ ولأن في هذا الوهم خداع للنفوس، وتخدير للعقول، يجد أصحاب الوهم فيه سوقاً رائجة على الجهلة، يتعلقون بسرابه، ويلجؤون إلى ظله الزائف، يتقون ببرده حرارة ما يصادفونه من مشقة الحياة.

وقد خيم الجهل، في عصر الجاهلية، على بعض العقول، وعلى بعض جوانب التفكير فيها، فازدهرت الخرافة، ومن بين أنواعها الطيرة، وكَثُرَ اتِّباع طرق مهينة للعقل، مسخرة له في تقرير الأشياء، أو ترجيح بعضها على بعض؛ والناس سريعون إلى وضع مَرْفِقِهم على ما يسندهم

(١) مجلة الفيصل: العدد (٢٦٠)، ص ٢٠، صفر ١٤١٩هـ/ يونيو ١٩٩٨م

ويريحهم، ووجدوا ضالتهم في الطيرة، من زجر الطير، واستقسام الأزلام، واستنطاق السهام والأحجار، وتنفير الوحش؛ وهم بهذا يضحكون على أنفسهم، ويهزؤون بعقولهم، وفي هذا خديعة لهم، ومع هذا يجدون في ذلك راحة، وطمأنينة يركنون إليها.

وهؤلاء القوم لا يلتفتون للنتائج التي تأتي مخالفة لما تنبأت إيحاءات الودع به، ولا ما دلتهم عليه سوانح الطير وبوارحها؛ ولا يخطر ببالهم أن يتدبروا أمر كذبها، ولا يجرؤون على ذلك؛ لأنها قاعدة ثابتة في مجتمعهم، ولا يقدم أحدهم على نقد الثابت، إلا من وطد نفسه، من بينهم، على تحمل الأذى المتوقع، من نقد لاذع، ومن مقاطعة أو هجر، ومن احتقار وازدراء، ونبذ، وفرحتهم عظمى عندما يصدق الحدس صدفة، ويأتي الأمر

عَرَضاً بما أملوا، بعد أن تيامن الطير أو تياسر في طيرانه، أو عندما خرج السهم آمراً أو ناهياً.

يريد أحدهم أن يسافر، أو يتزوج، أو يبرم صفقة، أو يقوم بغارة، فيستقسم الأزلام، ويستشير السهام، ويلجأ إلى الطير فيزجرها، فإن تيامنت أقدم، وإن تياسرت أحجم، فيكون في هذا إفعل، أو لا تفعل، ويجد من يفعل هذا راحة بال، وطمأنينة نفس، ولا يلام على هذا إن أحجم عن واجب، ويشتد عزمه إن جاءت النتيجة بحَثّه على العمل، فالنتيجة في ظنه مضمونة، والغايَة سَوف يصل إليها دون شك أو ريب. وعلى هذا فالأحجار والأشجار، والحيوان الأعجم، وهي لا تضر في الحقيقة ولا تنفع، تصبح، من الجهل، ذات قوى خارقة، تفوق ما قد يأتي من ذي عقل وفهم. وكم من عمل خاطئ ارتكب بسبب

استشارتها، وكم حق استلب، أو أضيع نتيجة أخذ رأيها، وكم من أذى حل بسبب تنصيبها قاضياً، يحكم فيطاع، ويقول فيسمع لقوله.

ومع هذا فلم تكن كل البصائر عمياء، ولا كل العقول مغلقة، ولا كل الأذهان مقفلة، فهناك من تمرد على هذه العادة، وهناك من كفر بجدواها، وهناك من رفض حكمها، وهناك من لم يخضع لتأثيرها، ولم يأبه لنصحها؛ وهناك من ثار عليها وعلى قولها وحكمها، فلما نهته عن أخذ ثأر والده، كسرها، وقال: لو كان أبوك المقتول ما نهيتني، ورمى بنصحها عرض الحائط، وما أظنه ندم.

ويتضاعف الإيمان بفضل العقل، ويأتي رجل أنار الله فكره، وبصيرته، فهزأ بوسائل الطيرة، رغم إلحاحها بتكرار ظواهر إقناعها، فلم يتزعزع إيمانه بعدم جدواها، لقوة إيمانه بما

دله عليه عقله النيّر، وبصيرته الثاقبة، وبقي على هذا جاحداً لدورها، هازئاً بفعلها، ساخراً من حكمها، رافضاً لرأيها؛ ومضى في سبيله مرفوع الرأس، لم يثنه عن عزمه خرافة، ولم يفت في عضده وهم، ولم يغلبه باطل؛ غذّى الحقيقة في نفسه، فأصبحت عملاقة غطت على ما خالفها، وطرد الوهم، فقضى على أسبابه؛ تبع نور الفكر، وصد عن ظلمة العادة، فبرز عملاقاً بين أقزام، وتقدم على من رضوا لأنفسهم أن يتأخروا، بتقليدهم الأعمى، وتخدير عقولهم، وتعصبهم لعادات بالية.

وهذا الجهل في الاعتقاد، والتعلق بالأوهام، والخنوع للخرافة، لم يكن وقفاً على عصور الجاهلية أو على المجتمعات المتأخرة، بل تغلغل، أحياناً، في مجتمعات توصف بأنها راقية، فهناك

من ينصاع لضارب الودع، وهناك من ينثر حبات الأرز على موكب العرس، لتهنأ حياة العروسين، وهناك من يعلق حذوة حصان على باب داره، جلباً للسعادة، وطرداً للشقاء، وهناك من يتشاءم من صوت الغراب، ومنظر البومة، وهكذا من أمور يتعلق بنفعها أو ضرها القلب، وهي لا تضر ولا تنفع، حتى نفسها.

والنور الذي يشع من النفوس الصافية، والعقول الرزينة، والسليقة السليمة تمثله القصة الآتية:

«حدث سعيد بن سلم بن قتيبة عن أبيه أنه كان يعجب ممن يصدّق بالطيرة، ويعيبُها أشد العيب، وقال:

«فرقت لنا ناقة، وأنا بالطّفّ، فركبت في إثرها فلقيني هانئ بن عتبة، من بني وائل، يركض وهو

يقول:

والشَّـــرُّ يَلقَــى مُطَــالعَ الأَكَـــمِ

ثم لقيني رجل آخر من الحي، فقال، وهو للبيد:

وَلَئِنْ بَعَثْتُ لَهُمْ بُغَـا ةً مَا البُغَـاةُ بِوَاجِدينَـا

ثم دفعتُ إلى غلام قد وقع في صغره في نار، فأحرقته، فقبح وجهه، وفسد، فقلت له:

هل ذكرت من ناقة فارق؟

قال: ههنا أهل بيت من الأعراب، فانظر.

فوجدناها قد نُتجت، ومعها ولدها»[1].

فلا شطر البيت الذي يتحدث عن الشر، ولا البيت الذي يوئس من العثور على الضالة، ولا الوجه المشوه حال دون العثور على الناقة، بل إنه

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٣١.

عثر عليها وقد ولدت ، ومن دل عليها أو كان سبباً في العثور عليها ، هو المشوه الوجه ، ومن كان عند غير «سلم بن قتيبة» وجه شؤم ، يمنع الخير .

***

خليفة محصَّن (١)

خلق الله البشر مختلفين في صفاتهم وتصرفاتهم، وفي نظرتهم إلى الحياة، ونظرتهم إلى غيرهم، فهم يتأثرون في ذلك بما تمليه عليهم طبيعتهم، وما تأتي به تربيتهم، وبمن يخالطونه، ومن يعملون معه، ويتعاملون معه.

بعض الناس يقدّر الآخرين، فيحترم عقولهم ويعاملهم بما يليق بهم، وبما هو حق لهم، لأنه يؤمن بهذا الحق لهم، ويسعده أن يرى السعادة تغمر قلوبهم، والبهجة تطفح على وجوههم، وبعضهم لا يفكر إلا في نفسه، ولا يراعي إلا هي، ولا يلتفت إلا إلى حقوقها، بحثه دائماً عن مكاسبها، وعينه على فائدتها، ونظرته إلى نفعها،

---

(١) نشرت في (مجلة الفيصل) العدد (٢٦١)، في عدد ربيع الأول ١٤١٩هـ، الموافق يوليه ١٩٩٨.

حتى لو كان في أي من ذلك ضرر على غيره، يفوق مُكتسبه، والأسوأ في هذا الأمر أن يأتي ذلك بصفة مِنَّة على الآخرين، فتكون بهذا الإساءة من جانبين، يسيء، ويطلب الإحسان مقابل ذلك، ويتطلع إلى المكافأة على هذه الإساءة.

والنفاق يتصف صاحبه بمثل ذلك، فالمنافق يمدح، ويخفي الذم، يعطي ويحجب الأخذ، يسالم ويبيت الحرب، يبدي الصلاح ويُكِنُّ الفساد، يُهدي النصيحة، ويُغيِّب الغرض والكسب الذي يرجوه من وراء ذلك، مع ما في عمله من أذى لغيره، من الغافلين الأبرياء.

ويتدارك الله ـ سبحانه وتعالى ـ بلطفه من يريد له الخير، ومن يمن عليه بالرحمة، فينير بصائرهم، ويدلهم على الحقيقة المغلفة، ويلهمهم الرد الحسن، والوقوف المبرور، أمام الخطأ المتعمد، ويجنبهم

الوقوع في شراك المتربصين، بكشف مصائدهم، وإبطال فعلها، وتفادي ضررها.

وضرر مثل هؤلاء المنافقين قد يكون محدود الانتشار، محدود الضرر، فلا يُلحظ، ولا يكون له ما يوجب الذعر منه، وقد يكون الأمر خلاف ذلك، فيأتي بأذى كثير، وكل هذا يتوقف على الهدف من النفاق، ومن وجَّهَه، ولمن وُجِّه، وفي أي ظرف، وبأي طريق؛ وأخطر هذه المواقف هو الموقف الذي يكون مع حاكم، ولا يعلم إلا الله مبلغ الضرر الذي يأتي من هذا الموقف، لأن الحاكم بيده تنفيذ الأحكام، ورعاية المصالح العامة، والحفاظ على الأمن، وسد أبواب الذرائع، مما قد يجعله يأخذ بالشبهة، ويرجح الحزم، ويؤدي به هذا الاجتهاد إلى عمل خاطئ، تذهب بسببه أرواح وتُزهق أنفس، وتُصادر أموال، وتُؤذى أجساد.

هناك رجل تقدم للمهدي بما اشتم منه المهدي النفاق، أو الغيبة، أو النميمة، أو الوشاية، أو الوقيعة؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى، وقد سهل اعتلاءه منصب الخلافة، قد حصنه، بحصن مكين، حماه من كيد من أراد أن يجعله مطية شر، ووسيلة أذى، ومركب ضرر. والمهدي من الخلفاء العلماء النابهين، عقله زاكي، وتفكيره واسع، وثقافته عميقة، ومعرفته بالناس كاشفة؛ ذكي، لماح، متنبه يقظ، يعرف الخطأ عند أول بروزه، ويشم رائحة الأذى عند بدئه، ولهذا لم يعط لمرتكب الخطأ فرصة للحديث، أو يمد له الحبل ليلقي سمومه، ويزرع أشواكه، أوقف الرجل عند أول وهله، وأوصد الباب عنه عند أول كلمة، فحمى ذهنه من أن يلوث، وسمعه من أن يؤذى، وأعطى درساً عميق الفائدة، غزير النفع،

ثمنه غال، وقيمته مرتفعة، فدل على حسن نية، وصدق نظرة، ورسم بهذا سياسة، سوف تعفيه في المستقبل من أمثال هؤلاء المتطفلين، والمتكسبين؛ ولعل هذه الحادثة وقعت في أول ولايته للخلافة، فرفعت عَلَماً دل على نوع الحكم.

والنص الذي نحن بصدده هو:

«قال رجل للمهدي: عندي لك نصيحة، يا أمير المؤمنين.

قال: لمن هي؟ لنا، أم لعامة المسلمين، أم لنفسك؟

قال: لك، يا أمير المؤمنين.

قال: ليس الساعي بأعظَم عورةً، ولا أقبحَ حالاً من قابل سعايته، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة، فلا نشفي غيظك، أو عدوّاً فلا نعاقب لك عدوك.

ثم أقبل على الناس، فقال:

لا ينصح لنا ناصح إلا بما فيه رضى الله، وللمسلمين فيه صلاح، فإنما لنا الأبدان، وليس لنا القلوب، ومن استتر لم نكشفه، ومن أخطأ أقلنا عثرته؛ إني أرى التأديب بالصفح أبلغَ منه بالعقوبة، والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعالجة، والقلوب لا تبقى لوالٍ لا ينعطف إذا استعطف، ولا يعفو إذا قدر، ولا يغفر إذا ظفر، ولا يرحم إذا استُرحم»[1].

هذا ما قاله المهدي، ما عدا جملة:

«والقلوب لا تبقى لوالٍ لا ينعطف إذا استعطف، ولا يعفو إذا قدر، ولا يغفر إذا ظفر، ولا يرحم إذا استُرحِم». فإني أظنها مزادة، لأنها لا توافق الموقف ولا تتماشى مع الحادثة.

---

(١) تمام المتون: ٢٣٥.

سمو الخُلُق[1]

المجتمع الصالح يتكون من فئتين: مُعلِّم، وطالب علم، والمعلِّم كان في يوم من الأيام طالب علم، وطالب العلم، اليوم، قد يصبح معلِّماً غداً، فإن لم يكن معلماً للآخرين منصبا، فهو مستفيد من علمه، قدوة فيما يأتي منه لغيره، ومثلا لهم يحتذونه فيما يقولون، وفيما يفعلون، هذا إذا كان الله ـ سبحانه ـ قد حباه بحظّ أوفى ليكون كذلك، وليستفيد منه الآخرون، ويكون شمعة تضيء للآخرين، وعلما يهتدى به في السير في طرق الحياة المتعرجة الصعبة.

خيار الناس يطبقون ما تعلموا، وما استحسنوا، وما عليه تَربّوا، وما على أسسه نُشِّئوا، وهذا يعود

(١) نشرت في (مجلة الفيصل)، العدد: (٢٦٢)، ربيع الآخر، أغسطس: ١٩٩٨م.

عليهم بالنفع العميم في حياتهم، التي تصبح محاطة بالسعادة، والرضى، وحسن السمعة، وزكاء السيرة.

والناس، في أي مجتمع، سريعون إلى معرفة المتميز، لأن له نوراً يشع من علمه، فلا يخفى على أحد، وقد يعم ما يأتي منه من خير، في القول والعمل، أناساً كثيرين، يكونون له ألسنة حق، تشيد بما ترى، وتمتدح ما يأتي، وهذا كافٍ لأن يشجع على الاقتداء، والسير على المنوال، فإذا عم هذا الخلق الحسن، وانتشر ضياء هذه الصفات الحميدة، سعد المجتمع، وانتفت عنه المنغصات، وما أسهل دخولها للمجتمعات، غير المحصنة بالأسباب الخيّرة.

والسمعة، أيا كانت، تُشرِّق وتُغرِّب، لا تقف عند حدّ، لا يُعرف من سوف تقع في يده اليوم، ولا

إلى من سيدفعها غداً، لأن طبيعة المجتمعات، وتصرف الناس فيها، توجب هذا الانتشار، وقد لا يقف النقل عند الحقيقة، ولا يقتصر على الواقع، بل يزاد فيه وينقص، وقد يلعب الخيال في الرواية، حتى لا يكاد يميز الأصل من الإضافة. ومن غير طبيعة الأمور أن يوأد الخبر في مهده إلا بجهد ومشقة ودون ضمان دائم. فمادام الأمر كذلك فمن العقل أن يحرص الإنسان على أن يكون ما يروى عنه وعن أسرته وعشيرته ومجتمعه، جميل؛ لأن الجهد واحد، وما على المرء إلا مجاهدة نفسه، وردها عن هواها، إذا كان هواها يخالف الدين، والمعتقد، أو يصادم العادات، أو يجرح العرف، حتى لو أريد لهذه العادات، أو العرف، التغيير، فهذا لا يأتي بالمواجهة الخشنة، والتصرف المفاجئ والعمل الفج، ولا بالعنف المنفر، والتصرف الأهوج.

والنفس الخيّرة يغلب عليها الخير، ويتغشاها الطيب، ويتلبسها العمل الحسن، والنية الصادقة الصافية، فلا يأتي منها إلا ما يمتدح، ولا يعرف منها إلا ما يقبل، ويرحب به، ولا تقدم إلا على خير، نفعه يعم، وفائدته شاملة، ويكون فيه القدوة الحسنة، والمثل الجذاب. وللإستعداد الفطري عند المرء أثره فيما يأتي، وللتربية الجميلة عملها في تشذيب الطباع، وتهذيب النفوس، في ضوء الإخلاص في الهدف من التربية، وحسن اختيار النهج والمسلك، وإتقان وسيلة التقويم.

وهنا مثل يبين جهداً لم يضع سُدى فقد سارت بسمعة صاحبه الحسنة الركبان، حتى وصلت إلى من وصلت إليه، بيضاء نقية، فأبدى إعجابه بها، وإعجاب مثله فخر، يضاف إلى مصادر فخر أخرى، وتكشف المحادثة التي تمت حوله عن

جوهر أصيل يستحق الإعجاب والمدح، الذي أُغدق على مستحقه. وهذه هي القصة:

«قال معاوية لعَرَابَة الأوسي: (ت نحو: ٦٠هـ)

بأي شيء استحققت أن يقول فيك الشماخ:

رَأَيْتُ عَرَابَةَ الأَوْسِيِّ يَسْمُو
إلى الخَيْـرَات مُنْقَطِعَ القَرِيْنِ
إِذَا مَا رَايَــةٌ رُفِعَتْ لِمَجْــد
تَلَقَّاهَــا عَرَابَــةُ بِالْيَمِــينِ

فقال عرابة: سماع هذا من غيري أولى بك وبي، يا أمير المؤمنين.

فقال: عزمتُ عليك لتخبرني.

فقال: بإكرامي جليسي ومحاماتي عن صديقي.

فقال معاوية: لقد استحققت»[1].

(١) بهجة المجالس: ١/ ٤٦.

ثمرة الفصاحة[1]

الفصاحة ثمرة عقل وتدريب، ودقة ملاحظة، وغرف من ينابيع سبق إليها فطاحل هذا الفن، وهذه الموهبة. وكانت العصور الأولى للإسلام، بعد عصور الجاهلية، مسرحاً لعرض ما تميز من هذا، فكان الفصيح مرموقاً، ومقدراً في مجتمعه، خاصة من علية القوم، والعصر الأموي والعصر العباسي كان فيهما فصحاء، عربا ومستعربين، جمعوا الفكر الحضاري الذي كان سائداً في العصر العباسي خاصة، نتيجة دخول أفكار الأمم المتحضرة السابقة مع من دخلوا في الإسلام؛ ففكر الهند اقتبس، وفكر الصين استقي منه، فاحتكت الأفكار، فقدحت شرارات لامعة، سُجّلت

(١) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (٢٦٣)، جمادى الأولى ١٤١٩هـ، الموافق سبتمبر ١٩٩٨م.

لذلك الزمن.

وخير من يقدر الفكر، والفصاحة، وهي وعاؤه، هم الحكام، والرؤساء، لتميزهم فكراً، وحاجتهم إلى مثل الفصحاء، يحملون منهم، وإليهم، ما هم في حاجة إليه، لتغذية أفكارهم. ونقل أرائهم، وإذا كان الخلفاء الأمويون قريبون من عصر الجاهلية، وعهد الخلفاء الراشدين، وزمنهم لم تتغشاه العجمة، التي أفسدت اللغة، فإن أوائل خلفاء العباسيين كانوا يتميزون بأنهم أُهِّلوا قبل أن يأتوا للحكم، فكان عندهم من الوقت والمقدرة، ما جعلهم على رؤوس العلماء، وقد سمعنا عن كثيرين منهم أنهم تابعوا تعليم أولادهم لغة قومهم، وفكرهم الرصين؛ وشجعوا على تأليف كتب خصصت لهم، تتماشى مع سن أحدهم، وترتقي معه، وكان هذا من أسباب

ازدهار الرواية، والتسجيل، والتأليف، وأبرز من عرف بتكليف الأدباء على جمع ما شرد من نصوص الأدب: المهدي والهادي، وهارون الرشيد، والمأمون، تقديراً منهم لما درسوه في صغرهم، ولما آمنوا به من فائدة.

وهذا موقف للخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد يكشف فيه عن تقديره لجواهر الكلام عندما يسمعها، ودرر الفكر عندما يلحظها، وكان قد أخذه الغضب الشديد على أحد جلسائه، فأزالت كلمات صيغت بعناية، وسبكت سباكة بديعة حسنة، هذا الغضب، وأعادت المياه إلى مجاريها. ولعل المأمون كان سعيداً بأن يعود إلى حظيرة رضاه أحد من افتقد صحبتهم، وهو سهل ابن هارون، والقصة هي:

«يروى أن المأمون كان قد انحرف عن سهل،

إلى أن دخل عليه يوما، فقال:

يا أمير المؤمنين، إنك ظلمتني، وظلمت فلاناً الكاتب.

فقال: ويلك! وكيف؟

قال: رفعته فوق قدره، ووضعتني دون قدري، إلا أنّك له في ذلك أشد ظلما.

قال: كيف؟

قال: لأنك أقمته مقام هزء، وأقمتني مقام رحمة.

فضحك المأمون، وقال:

قاتلك الله! ما أهجاك!

ورضي عنه»[1].

وقيل إن هذه الحكاية لغيره؛ وقيل إن سبب رضاه غير هذا، وأنه قول لا يخرج عن حد الأقوال،

---

(١) سرح العيون: ٢٤٥.

وفصاحتها، إلا أن فيه جانباً سياسياً مخيفاً، وهو مهم، والقصة كما يلي:

«حكي عن سبب رضى المأمون عن (سهل) أنه تكلم بكلام حسن في محفل، فقام سهل، وقال:

ما لكم تسمعون، ولا تعون، ولا تعجبون!

أما والله إنه ليقول، ويفعل، في اليوم القصير مثلما قالت، وفعلت، بنو مروان، في الدهر الطويل.

فأعجب المأمون قوله، ورضي عنه»[1].

***

(١) سرح العيون: ٢٤٥.

سهم العين[1]

العين حق، ومن بين الأقوال في تفسير الآية الكريمة، التي في سورة يوسف، عما أوصى به يعقوب بنيه، ألا يدخلوا من باب واحد، وإنما من أبواب متفرقة، أن ذلك من أجل تفادي الإصابة بالعين.

ومن المتواتر عند الناس اليوم، وفي الماضي، مما هو مدون في كتب التراث، أن هناك أناساً معروفين بأن سهم العين عندهم إذا أطلق لا يخطئ؛ ولهذا يتفاداهم الناس، ويتقون شرهم؛ وعند أناس يُرقى المصاب بسهم العين بالقرآن الكريم، وعند أناس آخرين اعتقاد، متوارث، أنه إذا أُخذ من أثر العائن شيء، وسُقي به المعان، أو

(١) نشرت في مجلة الفيصل: العدد (٢٦٤)، جمادى الآخرة: ١٤١٩هـ، الموافق: أكتوبر ١٩٩٨م.

رُش عليه، كأن يغسل الإناء الذي لامس شفائفه، أو جلده، ويُسقاه المُعان فإن هذا يقضي على أثر العين، إذا لم يكن نتج عنها عاهة، قبل تدارك الأمر.

والأقوال عن العين كثيرة، ومتنوعة، وطريفه، ومع الزمن، وتتالي الأيام والسنين، تزيد قصصها، وتزيد الطرائف التي تلحق بها. ومما يقال في اِتّقاء العين أن العائن، إذا عرف عنه أن سهم عينه يصيب، فإنه يُصلّى عليه صلاة الجنازة، فتموت الملكة عنده، وتختلف الآراء في هذا، فمن الناس من يقول أنه يجب أن يُصلّى عليه، وهو غافل، دون علم منه، كأن يكون نائما مثلا، ومنهم من يقول: إن هذا لا يشترط.

ومما يقال أيضاً عن العين أنها قد تكون وراثة، وأن عائلة بأكلمها قد تكون مسلحة بهذا السلاح،

حتى أن بعض الأفراد لا يملك نفسه من أن يصيبها بالعين، ويروى في هذا أن رجلاً صعد نخلة، ليجني منها رطباً، وصادف وقوع عصفور قريب منه، جاء ليقتات مما فيها من رطب جني، فخاطبه العائن قائلاً له: ابتعد عنها، فعصفورها فيها، يعني نفسه، فانكسر العسيب الذي كان جالساً عليه، ووقع على الأرض.

ويشترط في هذا الفن أن تكون الجمل المحملة بأسهم العين مسجوعة، أو ذات تركيب متميز، وفيها من التشبيه القوي ما يحمل هذا الصاروخ المثقل بالأذى، ومن أجمل ما سمعت في هذا الصدد، أن فلاحاً كان يعمل في مزرعته ظهراً، ثم استراح تحت نخلة مُظِّلة، وكان أمامه دجاجة مع فراخها الصغار حواليها، فانقضت حدأة، والتقطت الأم من بين فراخها، فقال الرجل

بديهةً، معلقا على هذا المنظر المفاجئ:

«الويل لك يا حدأة، أخذت الدلة، وتركت الفناجين»! فارتطمت الحدأة بعسيب نخلة، وسقطت ميتة، ونجت الدجاجة من الخطف، ونجت الفراخ من اليتم.

ورواة هذه القصة، وسامعوهم، يعجبون من سرعة بديهة هذا العائن، في اختيار هذا التشبيه المتقن، المطابق للحالة التي كانت عليها الدجاجة مع فراخها؛ فمنظر الدجاجة وفراخها، يطابق تماماً وعاء القهوة، وحوله الفناجين.

هذه قصة تصور بعض ما يقال في زمننا، وهناك قصة عما ورد في التراث، مؤداها كما يلي:

«كان بالمدينة عجوز شديدة العين، لا تنظر إلى شيء تستحسنه إلا عانته، فدخلت على أشعب، وهو مريض في الموت، وهو يقول لابنته:

«يا بنية، إذا مت فلا تندبينني والناس يسمعونك وتقولين: وا ابتاه، أندبك للصوم والصلاة، للفقه والقرآن، فيكذبك الناس، ويلعنوني».

والتفت أشعب، فرأى المرأة، فغطى وجهه بكمه، وقال لها:

«يا فلانة، بالله إن كنت استحسنت شيئاً مما أنا فيه، فصلي على النبي عليه السلام، ولا تهلكيني».

فغضبت المرأة، وقالت:

«سخنت عينك، وفي أي شيء أنت مما يُسْتَحْسَن؟ أنت في آخر رمق».

قال: «قد علمتُ، ولكن قلت لا تكونين قد استحسنت خفة الموت علي، وسهولة النزع، فيشتد ما أنا فيه».

فخرجت من عنده وهي تشتمه

وضحك من كان حوله من كلامه؛ ثم مات»[1].

***

(١) التذكرة الحمدونية: ٤/ ٣٤١.

نظــرة ونظــرة[1]

يختار إنسان قولا أو فعلا، فكر فيه قليلاً أو كثيراً، أو لو لم يفكر فيه بعمق، فيحكم الناس على بعض هذه الأقوال، أو الأعمال، أحكاماً متباينة، فمن مستحسن، ومن مستهجن، وكل واحد عند التطلع للسبب، من آخرين، يعطي مبرراً مقبولاً، ولا يسع المراقب إلا أن يُعجب بالرأيين، إذا كانا متماثلين في القوة، بعيدين عن التكلف، صادقين فيما هدفا إليه، لا تحيز فيهما، ولا محاباة، ولا عناد.

وبعض الناس يغلب عليه، في نظرته إلى أقوال غيره وأفعاله، الخير، فيعلل بعض الأعمال، التي قد تبدو منتقدة، بما يقنع بأنها خلاف ذلك، وأنها

(١) نشرت في مجلة (الفيصل)، العدد (٢٦٥)، في رجب ١٤١٩هـ، الموافق أكتوبر - نوفمبر ١٩٩٨م.

غير منتقدة، بل ممتدحة، وصاحبها موفق، وعلى الطريق السليم، لأن مصدر الحكم ينظر إليها من زاوية مضيئة، في حين أن غيره ينظر إليها من جانب مظلم، فيغلب ذلك على ما يأتي من حكم. ولعل النية تلعب دوراً فعالاً في نجاح الرأي وقبوله، إذا كان الخير يكمن فيه، فإضمار الخير محفة تحمل صاحبها إلى هدف منير، عن طريق مضمار منبسط سهل.

والمواقف التي مثل هذه تكون قيمتها، في المجتمع الذي تأخذ الحادثة مكانها فيه، متناسقة معه؛ فالحديث العابر في دكان صراف غيره في مجلس زعيم كبير، خاصة إذا كان له سلطة قد يأتي منها النفع أو الضر، وقد يكون بإمكانها التقريب أو الإبعاد؛ والخلفاء لمجالسهم أهميتها، وما يقال فيها له نتائجه؛ ولهذا كان من الشرف أن يحضر

هذه المجالس من يظن أنه يليق بها .

ومجالس الخلفاء لها روح خاصة، يحتاج من يكون فيها أن يمشي على الشوك حتى يتقن حسن الاستماع، وحسن الحديث، لما يأتي من كلمة تقال، قد تجلب فائدة، أو تنزل عقابا . والخلفاء، ومن في حكمهم، لهم نظرة ثاقبة، سلحهم الله بها، وهم يستخدمونها منذ نعومة أظفارهم، فتنمو معهم، وتساعدهم على إدارة مجالسهم بما يعود بالنفع والصالح؛ وقد دون، عن هذا، في الأدب العربي، أخبار كثيرة، بعضها يُري حسن التصرف من الجلساء، وبعضها يُري بعض الزلات التي يخجل منها حتى قارئ اليوم .

وهذه الأخبار تكفلت بها كتب الأدب، وملأت بها أبواباً وفصولاً، وهي من أهم ما حرصوا على تسجيله؛ فمعاوية، مثلا، روي عنه، وعن

مجالسه كثير، ومثله كذلك عبدالملك بن مروان، وأبو جعفر المنصور، والمهدي، والهادي، وهارون الرشيد، والمأمون، والمعتصم، وسيف الدولة فيما بعد؛ وقبل هؤلاء جميعاً الخلفاء الراشدون، ويأتي في القمة، قولا، وتدوينا، ما روي عن النبي ﷺ.

وما يهمنا، في هذا المقام، ما بدأنا به الحديث، وهو التعليل الموفق لما قد يبدو معيبا، والقصة الآتية خير مثل على ذلك:

«حضر أبو الهذيل على مائدة المعتصم، فقال:

يا أمير المؤمنين، إن الله لا يستحي من الحق، غلامي، وحماري بالباب.

فقال المعتصم لإيتاخ، الحاجب:

مر لحمار أبي الهذيل بعلف، ولغلامه بالطعام.

فقال أحمد بن أبي دؤاد:

ألا ترى، يا أمير المؤمنين، إلى متانة دين هذا الشيخ، وتفقده لما يلزمه؟ لم يمنعه جلالة مجلسك عما يجب لله عليه في حماره، وغلامه؛ فجعل أحمد ما قدّره الناس محوجاً إلى الاعتذار منه شهادة له بالفضل»[1].

***

(١) التذكرة الحمدونية: ٩/ ٨٨.

اللغة مصدر فخر[1]

اللغة في أي أمة ذات أهمية كبرى، فلا أحد يستغني عن لغته، أو يعيش بدونها، فهي لازمة للحياة، إذ هي وسيلة أداء، على أثرها تأتي المعيشة، ويُكسب النفع، ويُدفع الضرر، وبإتقانها يحسن ذلك، ويأتي بالمراد كاملا غير منقوص.

واللغة مصدر فخر واعتزاز، لما فيها من تمييز أمة عن أخرى، ويتبع اللغة الفكر، فهما مترابطان، وما دامت اللغة وعاء الفكر ودليله، والفكر نبيل وشريف، وجبت العناية بها، وذلك بالمحافظة على أصولها المميزة لها، الحامية لقوتها، وبالسعي لتطويرها ونموها، وجعلها تساير تطور الحياة، واختلافها مع مرور السنين والقرون،

(١) نشرت في مجلة الفيصل، في العدد ٢٦٦، شعبان ١٤١٩هـ/ نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٨م.

ويكون ذلك بالمبادرة المواتية، والسرعة اللائقة بهذا الأمر المهم، حتى لا يكون هناك ثغرة يدخل منها هواء فاسد، إذ أنه لو دخل لكان سوسة نخرة، يصعب التخلص منها.

واللغة كائن حي يكاد أن يتنفس، ويتغذى، ويمرض، ويطول، ويقصر، ويكون عملاقاً، أو قزماً، واللغة في هذا صورة أهلها، إن قووا قويت، وزاحمت غيرها، وإن ضعفوا ضعفت، وزاحمها من هو أقوى منها، واستكانت لهذه المزاحمة، وسلّمت لأصحابها. وبهذا يغلبها غيرها، ويظلمها سواها، فيرثى لها؛ والضعف إذا بدا فشا، وإذا فشا فالانحدار سريع، وقد لا يُوقَف حتى يصل بها إلى القاع. وقد تموت اللغة، ولا يبقى لها إلا آثار تلوح في المعاجم، كالوشم في ظاهر اليد، وقد تبهت الصورة في هذه الآثار، حتى لا يصبح

بالإمكان تتبع أصلها .

لهذا حرص علماء اللغة العربية على المحافظة عليها ، بكل الوسائل التي بين أيديهم ، فألفوا في ذلك كتباً تحث على المحافظة عليها ، وملؤوها بما يشجع على ذلك ، ويجذب الناس إليه ، وذكروا بأن اللغة العربية هي وعاء الدين، بها نزل القرآن ، ودونت السنّة المطهرة ، واهتموا بالمعاجم لما لها من أهيمة في الحفاظ على اللغة العربية ، وكشف عن سعتها وغناها ، وجلاء ما قد يغمض فيها من مفردات . ولم يتركوا وسيلة من الوسائل التي تنفعها إلا اتخذوها ، محافظة عليها ، وبناء أسوار من الحماية أمام ما قد يهدد بإضعافها ، قصداً ، أو دون قصد .

ومن يتابع ما سبق أن كتب في هذا للوصول للهدف بحماية اللغة ، وتقويتها ، يدهش من

الجهود المتعاونة، واليقظة المتناهية، إحتساباً، وطلبا للأجر والثواب، وغيرة دينية، وطنية، وتبرئة للذمة، وإرضاءً للضمير، ونشهد أنهم لم يدخروا وسعا، ولم يتركوا سبيلا إلا وبذلوا فيه منتهى ما لديهم من طاقة.

ولم يكن الأمر يقتصر على علماء اللغة العربية، والمتخصصين فيها، بل جاء الاهتمام من جميع الطبقات والفئات الواعية في المجتمع، من مدرسين مع تلاميذهم، ومن آباء مع أبنائهم، والأمهات مع بناتهن، ومن رؤساء عمل مع مرؤوسيهم، ومن قادة لجندهم، ومن خلفاء لرعاياهم، ويأتي في مقدمة هؤلاء عمر بن الخطاب، الذي رأى مرة خيبة بعض الشباب المتراهنين في إصابة الهدف في الرمي بالقوس، وسمعهم يلحنون في اللغة، فأفهم أن مصيبتهم في

لغتهم أكبر من مصيبتهم في الرماية .

وسوف نذكر نصاً مضيئاً يكشف عما يدور في ذهن خليفة، عرف قدر اللغة، وما يجب لها من حماية، وما تحدث به مع أبنائه في هذا الصدد، من كلمات فيها بريق عاطفة وفكر، وإشعاع نخوة، وصفاء دين، ووضوح وعي، وسمو إدراك؛ صيغ هذا كله في كلمات نبيلة، وجمل تليق بما هو متكلم عنه، وتتناسب مع شرفه :

«قال المأمون لأحد أولاده ـ وقد سمع منه لحنا :

ما على أحدكم أن يتعلم العربية، فيقيم بها أَوَدَهُ ويزين بها مَشْهَدَه، ويفلّ بها حجج خصمه بمسكتات حُكمه، ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه، أَوَ يسرّ أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده، أو أمته، فلايزال الدهر أسير كلمته؟

قاتل الله الذي يقول :

أَلَـم تَــرَ مِفْتَــاحَ الفُـؤَادِ لِسَــانَهُ

إِذَا هُـوَ أَبْـدَى مَا يَقُـولُ مِـنَ الفَــمِ

وَكَائن تَرَى مِن صَاحِبٍ لَكَ مُعجْـ

ـــبٍ زِيَادَتُه ، أَو نَقْصُـهُ فِي التَّكَـلُّمِ

لِسَــان الفَتَى نِصْفٌ ونِصْفٌ فُـؤَادهُ

فَلَم يَبْـقَ إِلاَّ صُورَةُ اللَّحمِ والدَّمِ[1]

***

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٦٤.

الوضع وكشفه[1]

في كتب الأدب العربي ذخائر لا تحصى، وجواهر لا تعد، ولآلىء ليس لها حصر، بعض تلك الذخائر والجواهر واللآلىء طريف، يكشف جوانب من عقول الناس في ذلك الزمن، ويخرج ما يعتمل فيها، ويزيل الغطاء عما يدور داخلها، مما هو نتيجة لما تأثرت به من محيطها، أو تربيتها وتعليمها. وثمرة هذه الأفكار التي تطل من ثنايا قصة، أو قول حكيم، تلمس جوانب الحياة.

والنص الواحد يكشف عن أمور عدة، كل واحد منها يستحق الوقفة، والتدبر، والتمعن، وتأتي منه متعة فكر تجعله، بجانب قيمته الأساس، مسلّ ومبهج، ويدخل السرور على النفس، ولا

---

(١) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (٢٦٩) في ذي القعدة ١٤١٩هـ، مارس ١٩٩٩م.

ينغص هذا أن يكون أحياناً لم يقع، وإنما جاء به خيال أديب أريب، متقن لفنه.

فبعض هذه النصوص هو إخبار عما لم يحدث، وليس له واقع أو حقيقة، إنه خيال مجنح، ألّفه قائله بتؤدة، ورويّة، ليخدم غرضاً من الأغراض، والغرض قد يتصل بالدين، أو القبيلة، أو الحكم، أوطائفة من الطوائف، أو مذهب من المذاهب، أو مهنة من المهن، لُيرجِّح كفّة على كفّة، أو يهدم ركنا، أو يهزأ بجانب من الجوانب، أو يستهزئ بفئة من الفئات، أو يطعن في أحد، أو ينقص قدراً، أو يلمز جانباً، أو جاء به لمجرد التسلية والمرح.

وكما يقول التعبير الحديث: هذا التخيل لا يبدأ من فراغ، وإنما يُبنى على أمر من واقع زمنه، وما يعرفه الناس، وما ألفوه، وما هو متأكد من

قبولهم له، فلا يجدون فيه نبواً ولا غرابة، ولا انعزالا عما هو متعارف عليه، ودارج بين الناس، فلا شذوذ، ولا استهجان.

وبعض هذه القصص المفتعلة تحمل في داخلها قوة تجعلها مقبولة، بل مرحبا بها، وقد يكون الإتقان فيها جذابا أكثر من الحقيقة، التي لا تأتي بمثل هذه المتعة؛ والارتجال فيها (الذي هو من طبيعتها) لا يأتي بمثل هذه الصور البديعة؛ ولهذا يمكن أن يقال، أحياناً، إن هذه القصص المفتعلة أجمل من الحقيقة، وأحياناً تجمع من الفوائد أكثر مما تجمعه حادثة حقيقية واحدة.

وفي النص الذي سوف نسوقه تأتي أوصاف للقبائل مجمعة، لا تتجمع في الحقيقة، وإثباتها في ظلها قد لا يكون واقعاً أو مقبولاً، وسوف يجلب الجدل ومحاولة النقض والتكذيب، في حين أنه في

الصورة المتخيلة يأتي وكأنه أمر مسلم به، لما بذل فيه من جهد يرمي إلى الإتقان في التلبيس.

كان هناك أدباء، وكان عندهم من القدرة على التعبير ما يجعل ما يضعون لا يكتشف بيسر، خاصة إذا عمد أحدهم إلى تقليد أسلوب أديب سابق كبير، معترف له بالفضل، ومتخصص في لون من ألوان الأدب. وكان عند هؤلاء الواضعين، من الأدباء، ميول، يتبعها حماس، يجعلهم يختارون للدعوة لها أسلوب نحل القصص، أو الشعر، أو هما معاً.

وما يأتي على هذا النمط لا يعتبر معيبا في كل اتجاهاته، إذا عرف أنه موضوع، لأنه، لنا، يمثل فكر ذلك الزمن، وإذا لم تكن الحادثة قد حدثت فعلا، فإن بالإمكان أن تحدث، فليس هناك ما يحول دون ذلك، إذ أنها غير مستحيلة على البشر.

والقصة الآتية من هذا النوع، أنشأها منشئ، ورُكِّبت على بشار بن برد، لأنها تليق به، ولم يُبَيِّن مخاطب بشار، وهذا مدخل ضعف، والمدخل الثاني هو: من الذي كان جالساً يسمع، وبيده ورقة وقلم ودواة، يسجل ما حدث؟ ومدخل ثالث، وهو القدح المتتالي لكل تلك القبائل العربية؟ من الذي له فائدة من ذلك؟ إلا الشعوبية، التي تحمل غِلاًّ لهم، ولا تتوانى أن تُركب عليهم القصص في اختراع عيوب، وافتعال نواقص، والقصة هي:

«وقف على بشار بعض المجّان، وهو ينشد شعراً، فقال:

يا بشار، استر شعرك كما تستر عورتك.

فغضب بشار، وصفق بيديه، وتفل عن يمينه ويساره ـ وكان يفعل ذلك إذا غضب ـ وأراد أن

يقول هجاءً، ثم قال:

ويلك من أنت؟

فقال: أنا ـ أعزك الله ـ من باهلة، وأخوالي من سلول، وأصهاري من عك، ومنزلي نهر بلال.

فضحك بشار، وقال:

إذهب، فأنت عتيق لؤمك»[1].

***

(١) سرح العيون: ٣٠٥.

نحن مسبوقون[1]

وصل الطب بأقسامه المختلفة المتعددة، ما يختص منها بالتشخيص، وما يختص بالوقاية، وما يختص بالعلاج، وما يختص بالجراحة، إلى درجة عالية، تتطور بسرعة مذهلة يوماً بعد يوم، نتيجة التجربة، والأبحاث، وما ساعدت به الأجهزة الحديثة، التي تدخل في الكشف إلى الأعماق، وتَخْبُرُ كُنْهَ أصغر المخلوقات.

ويجد الطب تشجيعاً من القادرين، لمقابلة متطلبات البحوث فيه. وعالم الطب بتخصصاته المتعددة في تسابق بين القائمين على فروعه، في الدولة الواحدة، وفي الدول الأخرى.

وسوف نرى أشياء باهرة، وإنجازات مبدعة

(١) نشرت في مجلة (الفيصل)، العدد (٢٧٠) في ذي الحجة ١٤١٩هـ، الموافق: أبريل ١٩٩٩م.

ما عاش بنا زمننا، وامتدت أيامنا، قياساً على ما تم، وحكماً بما رأيناه في هذا المجال المهم، الذي يلمس حياة الناس، وصحتهم، وهي أغلى ما عليهم.

هذا في زمننا أما في زمن آبائنا فشهدت العصور المتوالية ركوداً في هذا الجانب في بعض المجتمعات، ونهضة ونشاطا في مجتمعات أخرى، ورُوي لنا عن عصر الجاهلية في الجزيرة العربية روايات، تحمل قصصاً اختلطت فيها الحقيقة بالخيال، والصحيح بالمكذوب، والمعقول بغيره، والواقع بما لم يقع.

أما في المجتمع الإسلامي، وبعد أن تلامست الحضارات، وصبت في بوتقة مجتمع واحد في العصر العباسي فقد ازدهر الطب، وتطورت، بالتقاء علومه بعضها مع بعض، حاله، ووصل

إلى درجة لايزال الطب الحديث يبني بعض أسسه عليها، ولن يزال لأنها أسس ثابتة، وما أمر ذاك الذي كان يحمل في جيبه حفنة من التين المجفف، يتناول منها إذا أحس بأنه على وشك أن يغمى عليه ببعيدة عنا، وما هذا إلا من نقص السكر عنده، وهذا أساس في الطب، حدوثه، وعلاجه.

وأُلِّفت في الطب كتب، ووُصِفت فيها أمراض، ووضع لها العلاج، وكان العلاج ناجعاً، وثابتاً، متى ما عرف المرض، وحدد موضعه، ومدى تغلغله، وكان بين الأطباء اتفاق في هذا، عندما لا يكون للاجتهاد نصيب، ولا للاختلاف مجال.

وتقدم علم الأدوية عندهم، فوصفوا منها ما يحتاجه المرض بنوع الدواء، ومقداره، ووقته، ومدته. وأصبح هناك متخصصون، وبرز بينهم بارعون، وتنافست المدن بوجود النطاسي فيها،

من خبير الأقرباذين، والطبيب، وتنافس الخلفاء في تقريب النابه وتشجيعه.

وبقي غير العربي يحظى بالسمعة عند الناس، رغم تفوق بعض العرب، تماما كما هو حادث اليوم، واضطر ـ سخرية ـ بعض العرب أن يتسمى باسم غير عربي، ليجذب الناس، وليثبت وجوده، إلا أن مرور الزمن، وبراعة بعض العرب هي التي شقت له الطريق إلى القمة، واعترِف به من علية القوم، وهم القدوة، واكتشف الناس أن في بحرهم لآلىء، ومن بني قومهم جواهر، تماماً كما هو حادث اليوم، وكما هو حادث في مجتمعاتنا العربية.

وبرز القدامى في الإبداع في الجراحة، وما يتصل بها، إجراءً لها، وتفنناً في آلاتها، وأدواتها، حتى أن كثيرا مما هو مستعمل في أرقى مستشفيات

العالم لا يختلف عنها شكلا، وقد تتغير المادة المصنوعة منها فقط، وقد قام الدكتور البروفسير المكافح (فؤاد سزكِين) بعمل مجيد، إذ صنع نماذج لما كانوا يستخدمونه من هذه الآلات، وعرضها في معهده في فرانكفورت، ومن رآها من أصحاب هذا الفن لا يكاد يصدق أن مثلها كان يستعمل في تلك الأزمان.

وتصل الدقة في عملهم إلى عمل جراحة للكُلى، لاستخراج الحصوات، وقد تقرر أن يجري الطبيب لأحد الخلفاء عملية جراحية، يستخرج بها حصوة من كلوته، إلا أن الدواء الذي أعطاه الخليفة في تلك الليلة جاء بالفائدة المتوخاة، وخرجت الحصوة دون الحاجة إلى جراحة.

ومن نظر في كتب الأولين يجد رياضاً من الحقائق الباهرة، التي لا يعلم عنها أبناء اليوم،

ولا يتوقعون أنه قد وُصِل إليها قبل زمنهم، ومن الأمثلة على الإبداع في حقول الجراحة القصة الآتية:

يقول الأمير أسامة بن منقذ، وهو يتحدث عن الحرب وتجربته فيها، والحوادث التي حدثت عرضاً فيها:

«أعود إلى حديث الحرب المقدم ذكره مع ابن ملاعب، وجرح عمي عز الدولة ـ رحمه الله ـ في ذلك اليوم عدة جراح، منها طعنة طُعِنها في جفن عينه السفلاني، من ناحية الماق، ونشب الرمح في الماق، عند مؤخر العين، والعين تلعب، لا تستقر، وإنما الجفون التي تمسك العين، فخاطها الجرائحي وداواها، فعادت كحالها الأوّلة، لا نعرف العين المطعونة من الأخرى»[1].

---

(١) كتاب الاعتبار: ٧٨.

وهكذا جراحة دقيقة، في مكان حساس،
أجريت وبإتقان متناه.

***

نافذة على التربية[1]

ينظر الكبار إلى الصغار أحياناً نظرة تجعلهم يضلون الطريق الصحيح، الموصل إلى حسن التربية، ونجاح التأديب؛ ينظرون إليهم، وكأنهم كبار، ويعاملونهم على هذا الأساس، ويتوقعون منهم ما يتوقعونه من أنفسهم، فيطالبونهم بما لا يستطيعونه، ويتوقعون منهم تصرفاً لا يأتي في خلد أحد من الصغار أن يعرفه، أو يقبله إذا عرف به، وينسى الكبار أن الفارق بينهم وبين الصغار في السن كبير، وهذا يستوجب أن يدرك الكبار أن هذا الفارق لا يقف عند السن فقط، ولكن يتبعه فارق في النمو، وهذا يتبعه نقص في الإدراك، وهذا النقص يتبعه خلل في التصرف، وهذا الخلل

(١) نشرت في مجلة الفيصل: العدد (٢٧٢) في صفر ١٤٢٠هـ، الموافق مايو / يونيو ١٩٩٩م.

يبعث على الحنق والسخط عند الكبار، فينسون، أو يجهلون التصرف السليم تجاهه، فيأتي العقاب غير متناسق مع الذنب: فيه قسوة، وله نتائج غير حميدة، قد تترك ندوباً في نفس الصغير لا تندمل، وقد تؤثر على مستقبله.

وينسى الكبار أنهم كانوا في يوم من الأيام صغاراً، وأنهم كانوا يتصرفون في ضوء المقاييس التي يتصرف بها الآن صغارهم، ولو رجعوا إلى الوراء لاستعاضوا عن العقاب بابتسامة تَستَذْكِر مواقفهم المماثلة في صغرهم، ولتذكروا الأسس التي كانوا يراعونها وتحكمهم في تصرفاتهم.

أذكر أننا ونحن صغار في عنيزة، وكانت الأبقار تخرج في الصباح، ويأخذها راع إلى الصحراء، وقت الربيع، عندما تكون الصحراء مخضّرة بالعشب، ونحن الصغار نستقبلها عند

أحد أبواب سور المدينة في المساء، ثم نعود بها إلى بيوتنا ركضا، نتسابق، ونتلوى مع أسواق المدينة الضيقة، ناسين الأخطار التي تنتظر الغافلين من المارّة، رغم أنه يسبقنا صراخ، نريد به التنبيه ظاهراً، وباطناً نريد به حث البقرة حتى تسبق غيرها، وليس هذا هو الخطأ الوحيد، فقد يكون لهذا مبرره، الذي نقدمه أمام اللوم، وإن كان غير حقيقي، وهو أننا نحرص على العودة بسرعة حتى لا تفوتنا صلاة المغرب جماعة، والحقيقة أننا نريد أن نسبق غيرنا، والخطأ الأكبر الذي لا نجد له مبرراً، ويأتينا باللوم العميم، هو أننا، وبكل قسوة، نلوي ذيل البقرة، حتى تطير من الألم، فإذا رآنا أحد الكبار، الذي لهم سلطة علينا، فالويل لنا.

لو رأيت ابني اليوم يرتكب مثل هذا العمل

المشين، تُرَى هل سوف أتذكر أني قد فعلت بالأمس ما يفعله اليوم، وأكتفي بابتسامة، أو استعرض قوائم العقاب لأنزل به ما يمليه الغضب، في تلك اللحظة، من عقاب.

عرامة الطفل في الصغر محمودة عند آبائنا، لأنها تدل على النجابة، وعلى أنه عندما يكبر الصغير سوف تكون هذه نواةً لشجاعة فائقة، وإقدام مُتناهٍ، وقد تتبعوا هذه المظاهر في الصغار فوجدوها تصدق عندما يكبرون، ويكون لهم قياد أنفسهم، وقياد غيرهم.

وقد حمل التراث بعض أقوالهم في هذا، وهي أقوال جاءت نتيجة ملاحظة متأنية، ونظرة محققة، وتجربة متنوعة، ونتيجة تدبر وتبصر، فَأَحْرِ بها، والأمر كذلك، أن تكون صادقة المدلول، مصيبةً للهدف.

قال عمرو بن العاص، وهو من عُرِفَ بعقله وذكائه، وعمق نظرته للأمور، ومجيء الحَكمة على لسانه:

«أكرموا سفهاءكم، فإنهم يقونكم العار والشنار»[1].

وقال مصعب بن الزبير، وهو الشجاع المجرب، والقائد المحنك، والذكي الحكيم:

«ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا»[2].

وقال أبو تمام الطائي:

والحَرْبُ تَرَكَبُ رَأسَهَا في مَشْهَدٍ
عُدِلَ السَّفيهُ فِيهِ بألفِ حَلِيمِ[3]

إذاً فما يأتي من الصغير، مما يعتبر شقاوة

---

(١) أدب الدنيا والدين: ٢٦٦.

(٢) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٣) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

وتمرداً، لا يخلو من إضاءة مفيدة، والإنجليز يقول حكيمهم:

«ليس هناك سحابة داكنة، إلا وداخلها بطانة بيضاء».

وعلى هذا، إذا أخطأ الصغير، فلنؤجل محاسبته، حتى نتأنّى، ونتبصّر ونتدبّر: هل يستحق عقابا؟ فإن كان، فما هو؟ وأما القسوة فيجب أن تمحى من معجم التأديب!!

***

بريـــق الحكمـــة[1]

أقوال الحكمة تُزيِّنُ جميع اللغات، وتحظى باهتمام جميع الأمم، لِما فيها من صدق، ولأنها عصارة فكر، وثمرة تبصر وتدبر، يقولها الناس في مواقف العبر، ويستشهدون بها في مواقف التمثل، وطلب حسن الاقتداء؛ مدلولها صائب، ومؤداها مسلم به؛ لا ينقصها قول؛ ولا يخالف مؤداها عمل؛ إن قورنت الأقوال بزّتها، وإن سابقت المعاني سبقتها؛ تزيد بريقاً مع الزمن، وتجمع متمثلين بها مع تعاقب الأجيال.

وقد أغرم العرب بصياغة الأقوال الحكيمة، استقوها من حضارتهم العميقة، وصفاء نفوسهم، وصدق نظرتهم إلى الحياة، وفصاحة

(١) نشرت في (مجلة الفيصل) العدد (٢٧٥)، جمادى الأولى ١٤٢٠هـ، الموافق أغسطس ـ سبتمبر ١٩٩٩.

ألسنتهم، وغنى لغتهم، ومقدرتهم على تسليم ما يملكونه إلى الخلف؛ بهذا أصبح عندهم حكم لكل أمر من أمور الحياة، ولكل شعبة من شعبها؛ تصبح الحكمة عندهم قاعدة ثابتة، وأساساً قوياً للاقتداء والاحتذاء.

وقد غلبت الحكمة على أقوال العرب، وترددت على ألسنتهم، وحرص السلف على تسليمها إلى الخلف، في سلسلة متتالية، وتنظيم لا ينقطع؛ تعهدوا بالمحافظة عليها، وصيانتها بالرواية، وإحيائها بالتطبيق، يزيدون فيها مع مرور الوقت، ويطورونها مع تعاقب السنين؛ يحورونها لتتناسب مع تطور مجتمعهم، وتتلاءم مع ما تبدل من حياتهم دون أن تفقد أصالتها، وصلتها بماضيها؛ يحرصون على أن تبقى جذابة، وأن يكون حفظها سهلا؛ فمرة يأتون بها نثراً، ومرة يأتون بها شعراً، ومرة

يلقونها مثلا .

يكاد أحدهم إذا تكلم لا يتكلم إلا بحكمة ، لكثرة ما صيغ منها ، والصور التي صيغت بها ، ولما يعرفه من قبول الناس لذلك ، وتقديرهم له ، وقوة تأثيره عليهم ؛ ويستوي في هذا العالم والجاهل ، كل في حدود مقدرته . وتجد الحكمة عامة يستشهد بها كل الناس ، أو تجدها مسربلة بسربال مهنة أحياناً ، أو لباس عمل أحياناً أخرى ، وتجد أن مؤدى ما قيل من أهل هذه المهنة يتماشى في مدلوله ونتيجته مع ما قاله أصحاب مهنة أخرى ؛ وتجد في أقوال التجار حكماً ، وفي أقوال الصناع مثلها ، وكذلك ما يماثلها في أقوال الصائغ ، وفي أقوال الراعي ، وفي أقوال المعلم ؛ وكلها تصب في بوتقة واحدة ، وتؤدي إلى النتيجة نفسها ، وإلى الهدف المتوخى ، والفائدة المرجوة .

وعندما يصاغ القول في صيغة الحكمة يكون تأثيره ثابتاً، وقوته تأتي من قوة القدرة على الصياغة اللفظية، والشعر من أكثر الأردية قبولا، وأوسعها أداة للحفظ والاستشهاد والتداول. ويؤكد هذا ما نراه في هذه الأبيات الحكيمة الصادقة لمالك بن القين الخزرجي، فهي مع صدقها، فيها من الجاذبية ما يشد السامع، مما يجعلها على لسانه دائماً، وبعض الأبيات تأتي هكذا:

إِذَا أَنْتَ حَمّلتَ الخَؤُونَ أَمَانَةً
فَإِنَّكَ قَدْ أَسْنَدتَهَا شَرَّ مَسْنَدِ

فَلاَ تُظْهِرَنَّ ذَمَّ امرِئٍ قَبلَ خَبرِهِ
وَبَعدَ بَلاَءِ المَرءِ فَاذمُمْ أَو احمَدِ

وَلاَ تَتْبَعَنْ رَأيَ الضَّعِيفِ تَقُصُّهُ
وَلٰكِن بِرَأيِ المَرءِ، ذِي العَقلِ، فَاقتَدِ

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ، وَإِنْ أَمُتْ،
فَتلكَ سَبيلٌ لَسْتُ فيهَا بِأَوْحَدِ
وَقَدْ عَلِمُوا، لَوْ يَنْفَعُ العلمُ عِنْدَهُم،
لَئِنْ متُّ مَا الدَّاعِي عَلَيَّ بِمُخلَدِ
فَقُل للَّذِي يَبْقَى، خلافَ الَّذي مَضَى:
تَجَهَّزْ، لأُخْرَى مِثلِهَا، فَكَأَنْ قَدِ
لَعَلّ الَّذي يَرْجُو رَدَايَ، وَيَدَّعِي
بِهِ، قبلَ مَوْتي، أَنْ يَكُونَ هُوَ الرَّدِي
فَمَا عَيْشُ مَنْ يَبْقَى وَرَائي بِضَائِرِي
وَمَا مَوتُ مَنْ قَدْ مَاتَ قَبْلِي بِمُخلِدِي
وَلِلمرءِ أَيَّامٌ، تُعَدُّ، وَقَدْ رَعَت
حِبَالُ المَنَايَا، لِلفَتَى، كُلَّ مَرْصَدِ[1]

(١) كتاب الاختيارين: ١٦١-١٦٢.

الصمت فضيلة(١)

الصمت فضيلة، دأب الحكماء والعلماء، والأسوياء من الناس على وصفه بهذه الصفة، وحرصوا كذلك على الاتصاف بها، وحث الناس على التخلق بهذا الخلق، لفوائده التي لا تكاد تحصر، ومزاياه التي لا تكاد تعد.

والصمت المطبق محمود، ولا يحمد خلافه إلا لعاقل يزن الكلام، سليم الفكر، مأمون القول، وراء نطقه جلب منفعة، أو دفع ضرر. وأول فوائد الصمت قلة سقط الكلام، والسلامة من زلات اللسان، وما يضفيه التزام الصمت من الهيبة والوقار، وما يحيط به صاحبه من الغموض المحبب، وما يأتي له به من اعتبار كَسبه بهذا

(١) نشرت في مجلة «الفيصل» بالعدد: (٢٧٧) في رجب: ١٤٢٠هـ، الموافق: أكتوبر ـ نوفمبر ١٩٩٩م.

الصمت الذي ستر عيبا، وحجب نقصا، وحمى صاحبه من أن يسقط من أعين الناس، أو أن يزدروه. فكم من صامت أعطي وزنه، لمظهره، تقديراً وتبجيلاً، وكم من صامت كرم وقدم، لهيئته وبنية جسمه، وهو لا يستحق من ذلك قطميراً، وكم من متكلم صفع على قفاه، وأخرج من المجلس؛ لأن كلامه فضح مظهره وهيئته، وأساء لحق نفسه، ولحق الآخرين.

والنطق له قواعد دقيقة تحكمه، أما الصمت فلا يكاد يكون له قواعد، فالإنسان فيه يطبق شفتيه فلا يدري الناس ما وراءهما، فإذا تكلم عرفه من لم يعرفه، ووزنه بمثاقيل ناقدة، ومعايير قاسية، لأن للحديث عند الناس قيوداً، وسلاسل وأغلالا، فالقيود على جوانبه تحميه من أن يخرج عن طريق الصواب، والسلاسل تحكمه عن أن

يربع دون ضابط أو لجام؛ ومن حدود النطق وسلاسل القول وأغلاله، ألا يسبق القول الفكر، وأن لا تزيد الكلمات عن الإبانة، وأن تكون الكلمات خادمة مطيعة للمعاني، سائرة في ركابها، متحصنة بحصنها، لا تتعداها إلى غيرها، ولا تقصر دونها، لابسة أبهى لباس، ومتدثرة بأجمل بُرد، تشد السامع ولا تنفره، تهديه ولا تضلله.

وشروط نجاح الكلمة لا تكمل إلا بحسن وقع نبرتها ودقة مؤداها، ووضوح نطقها، وبيان صيغتها، وحسن اختيارها؛ فإذا تساعدت هذه الأمور، وتساندت، أتى التعبير وافيا بالهدف، مصيبا للغرض، مليئا بالفائدة، مفعما بالنفع؛ وإلا كان القول ناقص الفائدة، أو زائداً عن الحد، مملا، فيكون مرفوضا، والصمت خير منه، وأخف على السامع نفقة، لأنه أخل بشروط القول

القاسية، ولأن الصمت صندوق مقفل، لا يعرف أحد ما بداخله، ولو حاول أحد أن يحتال عليه باستقراء ملامح الوجه، أو استنطاقها، أو بتفسير حركة اليدين، أو رصد مشي الرجلين، لعاد بخفي حنين، فالجوارح نادراً ما تبدي المكنون، أو تكشف المضمون؛ وعلى هذا يُبْقِي الصمت صاحبه لغزاً غير مفسر، وسراً مبهماً.

والحياة ودروبها، مليئة بالصامتين، الذين جمّلهم الصمت، وعاد عليهم بالمدح، وفضحهم النطق، وعاد عليهم بالذم، فكسبوا بالصمت، وخسروا بالنطق، ومن عاش، وطال عمره، وامتد به زمانه، لابد أن يرى نماذج من هؤلاء الناس، مَنْ صمت فلم يعرف، ومن نطق فعرف، ولو سُجِّل ما يمر بالناس من ذلك، لملأ أسفارا ومجلدات، وقد اعتنى آباؤنا بهذا وأمثاله، فقيدوا

أوابد جذابة منه، فجاؤا بالطريف الممتع، المضمَّن مواعظ وعبرا، تكشف عن بعض جوانب المجتمع، وسوف نقتطف من هذه المدونات مثلاً أو مثلين، لنرى صورة ما رسموه، ومظهراً مما سجلوه.

«حكى ابن عائشة:

أن شاباً كان يجالس الأحنف، ويطيل الصمت، فأعجب ذلك الأحنف، فخلت الحلقة يوما، فقال له الأحنف:

تكلم، يا ابن أخي.

فقال:

ياعم، أرأيت لو أن رجلا سقط من شرف هذا المسجد، هل كان يضيره شيء؟

فقال:

يا ابن أخي، ليتنا تركناك مستوراً.

ثم تمثل الأحنف بقول الأعور الشِّنِّي :

وَكَائِن تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعجِبٍ
زِيَادَتُــــهُ أَو نَقْصُــــهُ فِي التَّكَلُّــــمِ
لِسَــانُ الفَــتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُــؤَادُهُ
فَلَم يَبْــقَ إلاَّ صُورَةَ اللَّحْــمِ وَالــدَّمِ

وكالذي حكي عن أبي يوسف الفقيه :

أن رجلاً كان يجلس إليه ، فيطيل الصمت ، فقال له أبو يوسف :

ألا تسأل :

قال : بلى ، متى يفطر الصائم؟

قال : إذا غربت الشمس .

قال : فإن لم تغرب إلى نصف الليل ؟

قال : فتبسم أبو يوسف ـ رحمه الله ـ وتمثل ببيتي الخطفى ، جد جرير :

عَجِـبتُ لإِزرَاءِ العَـيِيّ بِنَفسِــهِ

وَصَمتِ الَّذِي قَدْ كَانَ بِالقَوْلِ أَعْلَمَا

وَفِي الصَّـمتِ سَـترٌ لِلعَيِـيِّ وَإِنَّمَـا

صَحِيفَـةُ لُبِّ المَـرءِ أَن يَتَكَلَّمَـا[1]

***

(١) أدب الدنيا والدين: ٢٨٤.

ما آفة الأخبار إلا رواتها[1]

كان بإمكان من قال هذه الحكمة، القوية الأداء، الواضحة الهدف، السلسة الأسلوب، المحددة المعنى، الشاملة الفكرة، المسددة الاتجاه، أن يقول:

«آفة الأخبار رواتها».

مما قدر يراه غير المتمعّن أنه أكثر اختصاراً، ويفي بالغرض، إلا أن الحكيم قصد أن يُدخل في الجملة النفي يتلوه الإثبات، ليهيئ ذهن السامع، ويجبره على التوقع، والتطلع، ويتم حصر المعنى فلا يدخل الجملة ما ليس منها، ولا يخرج منها ما لابد من بقائه فيها.

والآفات في نقل الأخبار متعددة، ومتنوعة؛

(١) نشرت في مجلة الفيصل، العدد: (٢٧٨) في شعبان ١٤٢٠هـ، الموافق نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٩٩م.

بعضها يأتي من أن الراوي ينقل الخبر بعمومه، ثم يروي عنه السامع الخبر كما ارتسم في ذهنه، فيختار الكلمات والمعاني في حدود المعنى العام، الذي فهمه وتصوره، في ضوء الكلمات والجمل، ونبرة الصوت، وملامح الوجه، وحركات الأيدي، وقد يغير في الخبر عندما يرويه، مرة أثر مرة، مستعملا كلمات غير الكلمات الأولى، مادامت الرواية بقيت شفهية؛ وقد يبعد في التعديل، فيتصور خللا فيسده مجتهداً، أو غموضاً فيوضحه متبرعا، وقد يسقط جزءًا تبين، عند روايته له، أن عليه اعتراضا من السامعين، أو نقداً من العارفين، لمغايرته لما تعورف عليه، أو لتعارضه مع جزء آخر من الخبر، أو لتناقض أدى إليه سوء نقل الراوي للمروي.

وقد تأتي الآفة من الاجتهاد في إكمال ما خانت

فيه الذاكرة صاحبها، فعندما ينسى الراوي، أو يتشابه عليه اسم في الخبر، يعوضه باسم آخر يتناسق مع طبيعة الخبر، فإن كان الخبر مضحكا، فأشعب، وأمثاله من المضحكين، تسعف بهم الذاكرة سريعاً، وإذا كان أمراً يخص الذكاء، فإياس بن معاوية مشجب مُعَدٌّ يعلق عليه ما تاه عن الطريق، وإذا كانت القصة عن كرم شخص غاب اسمه عن الراوي، فاسم حاتم طي ينجد المستنجد، وإذا شك الراوي في قصة عن الحلم، وبطلها، فالأحنف بن قيس قريب التناول، وهكذا تدخل الآفة تدرج بخطى ثابتة، على أرض سهلة، الطريق فيها معبد، ومعالمه هادية.

وقد يجد الراوي، غير الأمين، أن وقوف الرواية عند حد معين، يجعلها شبه ناقصة، ولا تأتي بالإعجاب المطلوب، والدهشة المتوقعة، فيعمد

الراوي إلى جبر الكسر ، وإضافة لحم إلى العظم ، أو شحم إلى اللحم ، ويكمل بذلك ما ظنه نقصا ، ويسد ما حسبه ثغرة ، ويقوّم ما ظنه معوجّاً ، وقد يصل بهذا إلى بغيته من الرضَى ، أو الإصغاء ، أو الانبهار .

وقد تكثر الإضافات على الرواية ، مع كل راو جديد ، وقد تتغير المعالم الأصل ، ويتبدل الاتجاه ، فيهتز الهدف ، وتبهت الغاية ، حتى يصبح الخبر غير الخبر ، والقصة غير القصة ، وتنتصر الآفة .

وقد تأتي الآفة من أن الراوي يتوهم في تحديد وقت الخبر ، فيجتهد ، أو يتسرع فلا يجتهد ، ويضع تاريخاً غير التاريخ ، أو وقتاً غير الوقت ، أو مكاناً آخر غير المكان ، أو ظرفاً غير الظرف ، فيهتز الخبر من أساسه عند المتمعّن ، وتتهاوى أعمدته عند الفحص والتدقيق ، فيُجتث من أصوله ،

ويرمى به جانباً، ويصبح من سقط المتاع؛ أو يُجتهد في إعادته إلى مجراه عن طريق نص آخر، يسلب منه بريقه، فإن جاء في كتاب سل منه الثقة، وجره إلى مكان متدنٍّ من الاعتبار.

والرواية الآتية من الأمثلة على خروج الرواية من طريقها، وابتعادها عنه، حتى يأتي عالم بالأمر، يعيدها إلى الجادة، ويردها إلى طريق الصواب، فيصحح خطأها، ويسدد سهمها، ويبعد عنها الآفة التي نخرت جذرها، والسوسة التي تغلغلت إلى عروقها؛ وهذا مثل من الأمثلة التي دل على الخطأ فيها الزمان، والأشخاص، وهدى الله أحد النابهين، فكشف عن الخلل فيها، وبرهن بدليل قاطع على ما أبداه:

«ذكر المسعودي في «شرح المقامات»؛ أن المهدي، لما دخل إلى البصرة، رأى إياس بن معاوية، وهو

صبيّ، وخلفه وقدامه أربع مئة طيلسان من العلماء، وغيرهم؛ فقال المهدي:

أُفٍّ لهذه العثانِين، أما كان فيهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحدث، ثم قال له المهدي:

كم سنّك؟

فقال: سنّي - أطال الله بقاء أمير المؤمنين - سِنّ أسامة بن زيد بن حارثة لما ولاه رسول الله ﷺ جيشاً فيهم أبو بكر وعمر.

فقال: تقدم، بارك الله فيك.

وكانت سنُّه سبع عشرة سنة.

القصة جميلة، ولكن بها آفة، قد لا يدركها إلا الفطين المثقف، وقد لَحَظ صاحب كتاب «تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون»، خليل بن أيبك الصفدي، هذه الآفة، وبيّن مدخلها، وصحح مسار القصة، فقال:

«هذا غير صحيح؛ لأن إياساً توفي في دولة بني أمية، سنة إحدى وعشرين ومئة، والمهدي تولى الخلافة سنة ثمان وخمسين ومئة؛ والذي يصح في مثل هذا: أن يحيى بن أكثم ولي القضاء في زمن المأمون، ببغداد، وله عشرون سنة، ولما ولي قضاء البصرة استصغروه، فقال أحدهم:

كم سنّ القاضي؟

فقال: أنا أكبر من عتاب بن أُسَيد، الذي ولاه رسول الله ﷺ قاضياً على أهل اليمن، وأكبر من سوّار بن كعب، الذي وجّه به عمر قاضياً على اليمن»(١).

في كتابي «في طرق البحث»، تجربة مع طلاب السنة الرابعة، قسم التاريخ، في جامعة الملك سعود، كلية الآداب، عام ١٣٨٧هـ، تبين ما

---

(١) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون: ١٧٧.

دخل على النص المعطى هناك من خلل[1].

***

(١) الطبعة الأولى: ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م (ص٤٤).

الناس والزمان(١)

كل يتكلم عن الزمان، فعله بالإنسان، فبعضهم يشكوه، ويلومه، ويحمله أخطاءً لم يرتكبها، ويحاسبه على أمور لم يفعلها؛ وبعضهم ينصفه، ويعطيه حقه، ويصرف اللوم إلى من يستحقه، مبرئاً الزمان، ومظهراً أنه موكل، ودوره أن يبقى ثابتاً، يمر به الناس، وهو لا يتغير، والذي يتغير هم الناس، هم الذين يكيفون سيرهم، وهم الذين يحددون مرورهم، وهم الذين يحسنون وقت هذا المرور، أو يسيئون، ومن غير العدل لوم من لا طريق إلى ملامته، ومحاسبة من لم يخطئ.

والحديث عن الزمان، ومروره، ولوم الناس له، أو إعذارهم إياه، لابد أنه بدأ قديماً مع الإنسان

(١) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (٢٨٢)، في ذي الحجة ١٤٢٠هـ، الموافق: مارس ٢٠٠٠م

منذ أن بدأ يعقل، ويدرك، ويفكر، ويتبصر ويتدبر، فهناك أقوال قديمة، سجلت منذ أزمان لفلاسفة الإغريق، عن الزمن وتغيره.

والناس يختلفون في نظرتهم إلى الزمان، فللفلاسفة نظرة، ولأصحاب المهن نظرة، وللعلماء في الحقول المختلفة نظرة، وللشعراء والأدباء نظرة؛ ونظرة الشعراء نظرة مسبوكة في ثياب قشيبة، فيها من الجاذبية ما يجعل ما يقولون مقبولا، لصياغته الطريفة، ولفظه الزاهي، وأسلوبه السلس، وطريقته المقنعة، ولخياله المجنح، مما يجعله مقبولا مهما كان غريبا، أو مغالى فيه، أو بعيداً عن الواقع. فالشعر يقبل لهذه الشفاعات المتعددة، بل ويردد، ويغنى، ويتمثل به، ويُهدى إهداءً للأسماع، ويقدم هبة نادرة وعطية ثمينة للعقول، وللأذواق.

والشعراء أهل خيال جامح، يعطيهم المقدرة على إلباس الجسم العاري ثياباً فضفاضة زاهية، لا يعرف الإنسان من أي مادة سوف يفصلونها، ورضاهم، أو سخطهم، له دخل كبير في اختيار هذه المادة، وصياغتها بقالب مدهش، ومعجب؛ فالليالي، قد تبدو لهم أنثى، تحمل وتلد، وغيرهم لا يأتي في ذهنه إلا أن الليالي هي الوقت المظلم من اليوم الكامل، والليالي هي نصفه، والنهار نصفه الثاني، أما هم فلا ينزلون من أبراجهم العالية، ولا يقبلون أن يكونوا مع الناس في قارب واحد، ولا يرضيهم إلا الخيال الجامح، يحلقون إلى النجوم، يتجولون بينها، فيخرجون الليل عن طبيعته، ويلبسونه ثوب غيره، دون استئذان من صاحب الثوب، ودون أخذ رأي الناظر إلى هذا الثوب.

يقول أحدهم:

إنَّ اللَّيـَـالِي حَبَـالَى   يَلِــدْنَ كُلَ عَجِيبَــة

وقد يأتي هذا الشعر من ابن البادية، أو من ابن الحاضرة، فالحمل والولادة، في كل بيئة، ويشترك فيه الإنسان، والحيوان، والطير، وخشاش الأرض؛ أما الصورة الآتية، فلعل الشاعر فيها صحراوي، أو أنه قد استعار صورة من البادية، وخلط فيما جاء به الحقيقة مع الخيال، فجاء الخيال زاهيا بالفلسفة القريبة التناول، دون تعقيد أو تكلف:

إنَّ اللَّيَـالِي للأَنَـامِ مَنَاهِــلُ
تُطْوَى وَتُبْسَطُ بَيْنَهَا الأَعْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مَعَ الهُمُومِ طَوِيلَةٌ
وَطَويلُهُنَّ مَعَ السُّرُورِ قِصَـارُ

لقد أعجب هذا الشعر الثعالبي، الأديب،

الأريب، المعروف بعلمه وذوقه، وعدّه من أحسن ما سمع، وحق له أن يعده كذلك، إذ نحن أيضاً نعده من أحسن ما مر بنا، للصورة الصادقة الجميلة التي جاء بها هذان البيتان، والقول الزاهي الذي عبر به عنها؛ فالليالي حياض ماء تردها الأعمار، وقد يكون المورد بعيداً، وقد يكون قريباً، وقد يكون الوصول إليه سهلا، وقد يكون صعبا، وقد يكون جذابا، وقد يكون منفراً. والذي يحدد هذا ويحكمه هو ما تتصف به الليلة، فإن كانت ليلة سليم، سرى في جسمه سم حية رقطاء، فالليلة طويلة، بطيئة ثقيلة، وإن كانت ليلة عرس، فهي قصيرة، يمر وقتها مر السحاب، وتمضي هي بسرعة البرق. ولا أحد يجادل في هذا، ولا يماري فيه، فليالي الانتظار، لكل الناس، طويلة، وليالي الوجد، واللقيا، قصيرة؛ وقول الإنسان المعتاد

ليالي الحزن طويلة، وليالي الفرح قصيرة، قول ساذج، لا جاذبية فيه، لخلوه من التزويق.

***

المـرأة والشـاعر[1]

المرأة شغل الرجل الشاغل، مثلما أن الرجل شغل المرأة الشاغل، وهذا سبب من أسباب بقاء الجنس البشري، وتناسله، وتسلسله، وفي هذا إعمار الكون، واندياح المجتمعات.

ونظرة الرجل إلى المرأة، والمرأة إلى الرجل، تحكمها العلاقة التي تكون بينهما، والشعراء، وهم أصحاب التعبير الباقي، سريع الانتشار، سريع الحفظ، سهلهُ، اهتموا بعلاقتهم مع الحبيبة أكثر من علاقتهم بأمهاتهم، وبناتهم، وأخواتهم؛ فأحاديثهم عن هاته النساء تأتي ساذجة، لا تخرج عن الحقيقة، وما عليه الواقع؛ أما الحبيبة، فتأتي العاطفة جياشة، وحرارتها تلهب الروح،

(١) نشرة في مجلة الفيصل، العدد (٢٨٧) جمادى الأولى ١٤٢١هـ/ أغسطس ٢٠٠٠م.

وتشحذ الهمة، وتقدح الفكر، وتعصر الذهن، ومع هذا يستكين العقل، ويحلق الخيال، ويسمو التعبير، وتزدهي الألفاظ، ويزدهر سوق المحسنات البديعية، سواء كان ذلك في وصف الرضى عنها، والهيام بها، أو وصف السخط، وصب العتاب.

وللمرأة دور مماثل للرجل، ولكن ما زرع الله فيها من حياء، وما أودع الله فيها من رقة، يجعل القليلات من بنات حواء، تجهر بنفثة الصدر، وما تعاني منه الروح، وما يكابده البدن، وتبقي الجوى في صدرها تدهدهه، وهي الخبيرة بتسكين الطفل، وتهدئته، وكأنها تخشى عليه لو طلع نفحه على الناس أن لا يقبلوه، أو يؤولوه، أو يلوكوه بألسنتهم، فيجرح شعورها، ويؤذي إحساسها الرقيق، وهي التي لا يعرف مدى ما

يبلغه الأمر منها إلا بنات جنسها ، ومن منهن مر بتجربتها .

والرجل إذا جاشت عنده العاطفة تجاه اليمين ، أغدق في الغزل ، وغالى في المدح ، وحلق في جو الخيال ، يرسم على صفحة أديمه الصور الجميلة ، ويلونها بألوان زاهية خلابة . وإذا غضب ، أسودت الدنيا أمام عينيه ، فأرسل جلاميده تترى ، وسهامه تتالى ، وظلم ، وأغرق في الظلم ، وتلذذ به ، وطالب غيره بذلك .

وجاذبية الشعر ، في هذا المجال ، غلبت جاذبية النثر ، من قول ، وحكمة ، ومثل . وَحَمْل الشعر لزهر الخيال ، ولِبْس ثوبه الزاهي القشيب تجعله مقبولا ، إن لم يكن لما يبرزه من معنى ، فلما يأتي به من لفظ أخاذ ، وقول ذي رنين ، ولأجل ذلك فتأثير الشعر يطغى ، وتمدح المرأة وتذم بحق ، أو بظلم ،

دون شعور بالذنب .

والشعراء أصحاب مقدرة في هذا لعمق هذا الفن في نفوسهم، وسقوطهم على الزوايا التي يرون منها ما لا يراه غيرهم فيها ؛ والصور التي تأتي في أذهانهم عندما يرون أمراً، أو يفكرون فيه ، تكون من منطلق إبداع يسلب لب السامع ، فيتأثر به، ويدفع معه في الطريق الذي يريد الشاعر أن يوصل مستمعه إليه .

ونعطي مثلا للإبداع في الصور، واختيار الزوايا ، لتصوير الأمور ، والإتيان بما يدهش ، ويعجب ، البيتين الآيتين ، لأبي الشيعي محمد بن عبدالله بن رزين ، في الغزل :

شَكَوتُ مَا بِي إلىَ هِنْدٍ فَمَا اكتَرَثَت

يَا قَلبَهَا أَحَدِيـدٌ أَنْتَ أَمْ حَـجَرُ ؟

إِذَا مَرِضْتُم أَتَينَاكُم نَعُودُكُمُو
وَتُذنِبُونَ فَنَأتِيكُم وَنَعْتَذِرُ

في هاذين البيتين المغالاة في القول، وجمال الصورة في الرسم، هما موطن السحر في هذا الفكر الجميل.

وشاعر آخر، لا يقول مباشرة: إننا نحب النساء، فكل أحد يستطيع أن يقول هذا، ولكنه ينقل السامع إلى بستان أغن، يجني من يانع ثمره صوراً يلبسها فكرة طرأت عليه فيقول:

إِنَّ النِسَاءَ رَيَاحِينٌ خُلِقْنَ لَكُم
وَكُلُّكُم يَشْتَهِي شَمَّ الرَّيَاحِينِ

ويختار شاعر آخر قول الحقيقة، والتعبير عن المنطق، ويضع فيما يقول أسسا للجدل، ولكنه يأخذ هذا بطريق الاستعارة، لتقوى حجته،

ويجمل قوله، فيقول:

فَنَحنُ بنُو الدُّنيا وَهُنَّ بنَاتهُـا
وَعَيشُ بَنِي الدُّنْيَا لِقَاء بنَاتِها[1]

ويحيرك شاعر آخر، فلا تدري أهو راض أم ساخط، وهو يقرر حقيقة تنطبق على الرجل والمرأة، ويأتي بهذا ملبسا إياه ثوباً قشيباً:

إنَّ النِّسَاءَ كَأَشْجَارٍ نَبتْنَ مَعَاً
مِنْهُنَّ مُرٌّ وَبَعضُ المُـرِ مَأكُولُ

وكأنه علم أن الناس سوف يقولون إن هذا ينطبق على الرجل والمرأة، فاراد أن يؤكد أمراً آخر يختص به المرأة، ولكنه لا يخرجنا من الحيرة، فهل يقصد أنهن مسيطرات وإن ما يقلنه أمراً للرجل لابد أن يطيعهن فيه، أو أنهن من العقل والحكمة

(١) أحسن ما سمعت: ٢٩.

إذا قلن قولاً، فإن من الخطأ مخالفته:

إِنَّ النِّسَاء متى يَنْهَيْنَ عَن خُلُقٍ

فَإِنَّهُ وَاجِبٌ لَابُدَّ مَفْعُولُ[1]

***

(١) أحسن ما سمعت: ٨٦.

مقياس حسن الخلق[1]

في المجتمعات التي لا دين لها، أو تركت دينها، وأبعدت عنه، ولم يعد يحكمها منه إلا صدى ضعيف من تعاليم دينها، تتبلور عندها عادات وتقاليد، ترتضيها قواعد لسيرها، وأسساً لتصرفها، وتكون هي المحور الذي تدور عليه حياتها اليومية وقد يصبح بالتعود والألف ما ليس حسنا حسنا، وما يعتبره مجتمع مخجلا يصبح لهؤلاء محل رضى وارتياح.

وكان في الجاهلية شيء من هذا، وعملت العادات عملها، فأبقت بعض الحميد وتبنت بعض القبيح، ولم ير ذلك المجتمع فيما يأتي من ذلك أي بأس، أو يشعر بأي نبو، حتى جاء الإسلام،

(١) نشرت في مجلة الفيصل، العدد (٢٩٤)، ذو الحجة ١٤٢١هـ، الموافق: مارس ٢٠٠١م

فهذب أخلاق الناس ، ونبذ ما كان قبيحاً ، وأبقى ما كان مشعاً مضيئاً ، وزاد أموراً أخرى ، ولم يترك القرآن والسنة أمراً من أمور الناس دون أن يرسم له الطريق المنير ، ويحذر من الطريق المظلم .

ولأن القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقد جاء ما فيه بيناً واضحاً ، منيراً مشعاً ، ولمس الناس ، من تطبيق ما فيه ، الفائدة ، وأحسوا برقي المجتمع في ضوء تلك التعليمات ، فتمسكوا بها ، ودعوا إليها ، وألف علماؤهم فيها من البيان ، والتفسير ، ما وضع فيها من النفع ما جعل مجتمعهم يبرز بين المجتمعات ، ويقبل الناس على هذا الدين طمعا في خيره ، وتقديراً لنهجه .

والسنّة المحمدية الهادية جاءت مفسرة ، ومبينة لبعض الأحكام ، مما جعل الدين الإسلامي وافياً بكل ما يحتاجه المسلم في حياته ، وما يجب عليه

لآخرته. وشمل حسن الخلق، وسلامة التصرف، وصحة السير، كلَّ جانب من جوانب الحياة، فلم يبق القرآن، ولا السنة زيادة لمستزيد، لا في الإحاطة بالأمور، ولا في نوعها وكنهها؛ أكبر الأمور وضحت، وأصغرها؛ وليس هذا مقام تتبع كل ما جاء في هذا المجال، فقد حملته مجلدات ومجلدات، ولكن ضرب بعض الأمثلة يُري نافذة من الإشعاع البهيج، والإيضاح المبين.

ثبت عن بعض الشعوب البدائية، وروي عن بعض قبائل العرب، أنهم إذا كبر الرجل، أو المرأة، وأصبح أحدهما عبئاً ثقيلاً على القبيلة في رحيلها، رحلوا وتركوا الشيخ أو العجوز خلفهم لموت بطيء؛ أما الإسلام فخلاف ذلك فمع قول الرسول ﷺ: الجنة تحت أقدام الأمهات، قال الله ـ تبارك وتعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ

أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وباب آخر من حسن الخلق يرسم القرآن حدوده بقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وباب آخر من أبواب الخلق المضيئة التي تحمي الإنسان من نفسه، وهي عدوه الأول، الأمارة بالسوء، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

حتى أصغر الأمور في الحياة، ينبه عليه، لأنه سوس نخر، قد يخفى لصغره على الناس، مع أن أثره كبير، إن روعي جاء بالخير العميم، وإن أهمل جاء بالشر المقيم، يقول الله عن هذا التصرف اليومي،

الذي يغيب عن ذهن المصلح الاجتماعي :

﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٩] .

هذا هو الإسلام ، يريد للمسلم أن يكون بأبهى صورة ، ويبعده عن أي مجال للانتقاد ، وينبهه إلى ما قد يخفى عليه .

ثم تأتي آية جامعة ، تلمس كبرى الأمور في حياة الناس ، فيضع الله ـ سبحانه وتعالى ـ الإنسان في النور ، نور الحقيقة ، الذي يجب ألا يغيب عنه ، لأن فيه صلاحه ، وبعده عن المجتمع البدائي ، مجتمع الغريزة الجامحة ، يقول الله تعالى :

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا

بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[الأنعام: ١٥١]

وكانوا يأتون كل هذه الموبقات، ويظنون أنهم يحسنون، وهذا هو البلاء الأكبر، والسفه المتناهي.

ثم يتطرق إلى خلق آخر يبين فيه حكمه، وما يطلبه من المسلمين فيه، بقول بيّن، وتوجيه واضح، يقول تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

[لقمان: ١٥٢]

هذا كله في سورة واحدة، وكل آية في القرآن

فيها هدى، ونور، يهدي للتي هي أقوم. وحق للمسلم أن يفاخر بدينه، وأن يرفع رأسه، وهو يحمل كتاب الله في يده، ويتدبره في قلبه، ويعمل به في جوارحه.

***

الأسـنان [1]

الأسنان نعمة من نعم الله على الحيوان، ناطقاً أو أعجماً، فهي أول مرحلة من مراحل هضم الطعام، لاستساغته، وتمثّله، وهي إحدى جوارح الإنسان المهمة، عملها الرئيس هو قضم الطعام وطحنه، ولها وظائف أخرى تأتي تبعاً لبعض الاحتياج، فالعض من بين ما تسعف به، ونقض الحبال، من بين ما تتدخل فيه، وإطباقها سجن مَكِين للسان، للتأكد من الصمت، وتفادي الزلل!!

وهي من الجوارح الداخلية الخارجية، وهي تتطلب العناية المستمرة، عناية في كل يوم بالتنظيف والتفقد، وعناية في تغذيتها بالطعام الذي يقويها، ويحسن خروجها، واعتدالها، واستقامتها، ويصونها

(١) مجلة «آفاق طب الأسنان»، المجلد الأول، العدد الخامس، فبراير - مارس: ١٩٩٩م.

من الضعف؛ وتحتاج ما بين فترة وأخرى لزيارة طبيب الأسنان لإزالة ما علق بها من كلسيوم وتلوين، وما قد يحتاجه صاحبها من تقوية اللثة وعلاجها.

وأهمية الأسنان تتطلب العناية التامة بها، فلا تصرف عن عملها الرئيس إلى عمل ليس من شأنها، لا يكسر بها الجوز، ولا يقضم بها قشر اللوز، ويُتَحرّى ألا يكون في الأكل حصى أو أحجار.

ذهب رجل قبل مئة عام ليشتري لؤلؤاً من تاجر هندي حكيم في مدينة عدن، وطلب نوعا ثمينا، فأرسل التاجر خادمه لإحضار اللؤلؤ، ثم قدم التاجر لزبونه صحنا من اللوز، فأخذ يكسر كل لوزة بأسنانه، فلما جاء الخادم ومعه اللؤلؤ الثمين، وضعه التاجر في صندوقه، وأغلق الصندوق. والتفت إلى الزبون، وقال: أنت لست أهلاً لمثل هذا اللؤلؤ الثمين، لأنك لم تحافظ على ما هو أثمن

منه، أسنانك أثمن لؤلؤ في الوجود، ولم تعرف قدرها، ولا أبيع جواهري على من لا يعرف قيمتها، وطرده من دكانه.

وكثير من الناس يهمل أسنانه، فإذا تمكن منها الضعف، واستبد بها الخلل، وتساقط منها ما كان منتظما، وبدأ يعاني من الآلام، ومن نقص عملها، أدرك قيمتها، وندم حين لا ينفعه الندم، وكثير من الناس لا يعرفون قيمة الأسنان السليمة إلا بعد أن يفقدوها.

والله سبحانه وتعالى أحكم حكيم، متقن للخلق الذي يخلقه، فالله يعلم أن الطفل قد لا يدرك أهمية الأسنان، وهو عرضة للسقوط، وفقد الأسنان، ولهذا جعل نظاماً ثابتاً متقناً للأسنان، لها طلعة أولى، تؤدي غرضاً محدداً، ثم في سن معينة للإنسان تتساقط هذه تباعاً، ويحل محلها أخرى يتوقع أن

تبقى مع الإنسان، إذا حافظ عليها، وساعده الله، إلى آخر العمر.

وقبل أن تُعرف فرش الأسنان، وقبل أن يُعرف معجونها، سُنَّ السواك، وفيه المواد، والقدرة على تنظيف الأسنان مما ران عليها، وما علق بها مع الزمن. واليوم فرش الأسنان، والمعاجين المتنوعة، أصبحت مُيسَّرة، وتتيح مجال الأختيار بين أنواعها المتعددة، ولم يعد للإنسان حجة.

والاعتياد على تنظيف الأسنان إذا لم يبدأ من الصغر، فقد يصعب المواظبة عليه فيما بعد، عندما يشب الإنسان، ولهذا يُحث الوالدان على الحرص على تعويد أبنائهم وبناتهم هذه العادة الحميدة، ومن تعود عليها لا يتركها، بل إنه يشعر بقلق فيما لو حال بينه وبينها حائل، ويشعر أنه يستحيل عليه أن يأكل أو يشرب قبل أن ينظف فمه

وأسنانه .

والأسنان التي نتحدث عنها، لها أعداد، ولها أسماء، والعرب دقيقون في وصفها وتسميتها، فهناك الثنايا، والرباعيات والأنياب، والضواحك، والطواحن، والأرحاء، والنواجذ. وهي ست وثلاثون سنّاً من فوق وأسفل، في المعتاد، وأسماؤها تدل عليها، وعلى عملها.

والثنايا أربع: ثنيّتان من فوق، وثنيّتان من أسفل، ثم يلي الثنايا أربع رباعيات، ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل. ثم يلي الرباعيات الأنياب، وهي أربعة: نابان من فوق، ونابان من أسفل. ثم يلي الأنياب الضواحك وتسمى أحياناً (العوارض) وهي أربعة أضراس، إلى كل ناب من أسفل الفم وأعلاه ضاحك. ثم تلي الضواحك الطواحن والأرحاء، وهي ستة عشر في كل شق ثمانية،

أربعة من فوق، وأربعة من أسفل، ثم يلي الأرحاء النواجذ: أربعة أضراس، وهي آخر الأضراس نباتا، والواحد ناجذ، وجاء في الحديث أن النبي ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه.

وتسمى أصول الأسنان الداخلة في اللثة (سُنُوخ) واحدها (سنخ)، وفي الأسنان صفة هي (الأشر)، وهو التحدد والتحرز والتشريف الذي يكون في الأسنان أول ما تنبت، ويكون ذلك في أسنان الأحداث، وبعض النساء المتقدمات في السن يؤشرن أسنانهن تصابيا؛ والماء اللامع على الأسنان يسمى (الظلّم)، وهو محط من مراكز الغزل عند العرب، والشنب برد الأسنان، وفي الأسنان صفة (الغروب)، والواحد غرب، وهو تحدد الأسنان ودقتها، ومن صفات الأسنان (الفلج) وهو تباعد ما بين السِّنَّيْن، وصفة (الرّتل) في الأسنان هو

اتساقها واستواؤها[1] .

وهناك صفات أخرى، تركناها خوف الإطالة .

ولقد لعبت الأسنان دوراً فاعلاً في تحديد الشجاعة، فقد جاء رجل إلى الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو معروف بشجاعته، فسأله عن الشجاعة، فقال له عليّ ضع أصبعك بين أسناني، وخُذ أصبعي بين أسنانك، وعض على أصبعي بما تستطيعه من قوة، وسأفعل مثل ذلك بأصبعك، ومن تحمل العضّ أكثر من الثاني فهو شجاع، وبعد هنيهة من العضّ صرخ الشخص الآخر متأوهاً، فقال له عليّ ـ رضي الله عنه ـ كنت أنا على وشك أن أصرخ ولكنك سبقتني، وغلبتك بالصبر، إذاً الشجاعة هي في التحمل وإطالة الصبر .

ودخلت الخرافات في زمن مضى في أمر الأسنان،

---

(١) انظر «خلق الإنسان» لأبي محمد ثابت بن ثابت ص ١٦٥ .

فكان الأطفال إذا سقط سِنٌّ من أسنانهم، أخذوه، وطوّحوا به إلى الشمس، وقالوا خذيه سن شيطان وأعطيني سن غزال، وهي خرافة جاهلية، فالشمس لا تملك نفعاً ولا ضراً للسن المنخلع، ولا السن الطالع.

واستعير اسم السن والأسنان لغير أسنان الإنسان والحيوان، وأطلق عليه ما يشبه الأسنان، فقيل لنتوءات المفاتيح أسنان، وقيل لبعض نتوءات (محالة السواني) أسنان.

ودخل تعبير السن لتحديد الأعمار، ففلان أكبر سناً، وفلان أصغر سناً، رغم عدم الصلة الدقيقة في هذا، وانطباقها على الحيوان أكثر، فهذا الحيوان (ثني) وهذا (رباع) وهي صلة بين السن والعمر، أما في الإنسان فلا تصح بدقة.

والأسنان تلعب دوراً مهماً يخرج عن القضم،

فالخلل فيها يخل بالنطق والحديث ، فإذا ما سقطت كلها أصبح فهم المتكلم عسيراً ، ومنظره مضحكا ، وقد أفادت الأسنان الصناعية في تفادي هذا الإحراج لكبار السن .

وتقدم اليوم طب الأسنان ، فمن حفر وحشو ، إلى جسور وتلبيس ، إلى زرع وتثبيت ، وهذه العناية الصحية ، الحديثة ، المتعددة الجوانب أفادت كثيراً ، وأبعدت عن الناس أمراضاً خطيرة كانت تنغص عليهم حياتهم ، بسوء الهضم ، والصداع ، والتأثير على الآذان والعيون والغدد المختلفة .

الأسنان نعمة تستحق الشكر للمنعم بها ، ومع الشكر الاعتناء بها ، وحمايتها وتقديرها .

ولله المستعان ، ، ،

***

الفهارس

(١) فهرس المواضيع حسب ورودها ٣٧٠

(٢) فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء ٣٧٣

(٣) فهرس الأسماء ٣٧٦

(٤) فهرس الأماكن ٣٨٠

(٥) فهرس المراجع والمصادر ٣٨١

(٦) فهرس الأشعار ٣٨٥

***

(١)

فهرس المواضيع حسب ورودها

١ـ المقــــدمـة ٥

٢ـ الاســم والزمـن ٩

٣ـ حــب الاســتطلاع ١٥

٤ـ أرابح سلم أم خاسر ٢١

٥ إلتــواء العقــل ٢٧

٦ وســائل إقنـــاع ٣٣

٧ حصيلـة التجـارب ٣٨

٨ قصّـر ولم يقصـر ٤٤

٩ الصـــديق ٥٠

١٠ أدب ومشاكسة ٥٥

١١ منذ يوم التأسيس ٦١

١٢ العمامة فوق الهامة ٧٦

١٣ الحِكــم وضياؤهــا ٨١

١٤ جــادّة الأفكــار ٨٧

١٥ ســوا.. ســوا ٩٣

١٦ المعادن وثقافة الشاعر ٩٩

١٧ قصص السمر ١٠٥

١٨ خطوة في الإدارة ١١١

١٩ ضيــاء العلــم ١١٧

٢٠ رميــة طائشــة ١٢١

٢١ الموعظة في ثوب رشيق ١٢٦
٢٢ يكيل له بصاعه ١٣١
٢٣ مخـارج موصلـة ١٣٦
٢٤ العلـم وضيـاؤه ١٤٣
٢٥ مجالسـة الرجـال ١٤٩
٢٦ الإسـلام والخلـق ١٥٦
٢٧ الرشـوة ١٦٨
٢٨ الخيـر مضيـيء ١٧٥
٢٩ عبـق الكـرم ١٨١
٣٠ نقاش العلمـاء ١٨٩
٣١ ويؤثرون على أنفسهم ١٩٤
٣٢ من هموم الحكام ٢٠١
٣٣ الـردّ الحـقّ ٢٠٧
٣٤ الإيمـان والفطـرة ٢١٢
٣٥ الدنيـا وأهلهـا ٢١٧
٣٦ عمق الإيمـان ٢٢٣
٣٧ رد على قـول ٢٢٧
٣٨ اللقب والنبز به ٢٣٣
٣٩ من القلب إلى الرب ٢٤١
٤٠ بريـق الفضيلـة ٢٤٧
٤١ الشـورى ٢٥٤
٤٢ لا طيـرة ٢٦٠
٤٣ خليفـة محصّـن ٢٦٨
٤٤ سـمو الخلـق ٢٧٤
٤٥ ثمرة الفصاحـة ٢٧٩
٤٦ سـهم العيـن ٢٨٤
٤٧ نظـرة ونظـرة ٢٩٠
٤٨ اللغـة مصـدر فخـر ٢٩٥

٤٩ الوضـع وكشـفه ٣٠١
٥٠ نحـن مسبوقون ٣٠٧
٥١ نافذة على التربية ٣١٤
٥٢ بريــق الحكمــة ٣٢٠
٥٣ الصــمت فضيلـــة ٣٢٥
٥٤ ما آفة الأخبار إلا رواتها ٣٣٢
٥٥ الناس والزمـــان ٣٤٠
٥٦ المــرأة والشـــاعر ٣٤٦
٥٧ مقياس حسن الخلق ٣٥٣
٥٨ الأســـــنان ٣٦٠

* * *

(٢)

فهرس المواضيع حروف الهجاء

١ أدب المشاكسة ٥٥
٢ أرابح سلم أم خاسر ٢١
٣ الإسلام والخلق ١٥٦
٤ الاسم والزمن ٩
٥ الأسنان ٣٦٠
٦ إلتواء العقل ٢٧
٧ الإيمان والفطرة ٢١٢
٨ بريق الحكمة ٢٢٠
٩ بريق الفضيلة ٢٤٧
١٠ ثمرة الفصاحة ٢٧٩
١١ جادة الأفكار ٨٧
١٢ حب الاستطلاع ١٥
١٣ حصيلة التجارب ٣٨
١٤ الحِكم وضياؤها ٨١
١٥ خطوة في الإدارة ١١١
١٦ خليفة محصن ٢٦٨
١٧ الخير مضيء ١٧٥
١٨ الدنيا وأهلها ٢١٧
١٩ الرد الحق ٢٠٧
٢٠ رد على قول ٢٢٧

٢١ الرشـــوة ١٦٨
٢٢ رميـة طائشـة ١٢١
٢٣ سـمو الخلـق ٢٧٤
٢٤ سـهم العـين ٢٨٤
٢٥ سـوا.. سـوا ٩٣
٢٦ الشـــورى ٢٥٤
٢٧ الصـــديق ٥٠
٢٨ الصمت فضيلة ٣٢٥
٢٩ ضيـاء العلـم ١١٧
٣٠ عبـق الكـرم ١٨١
٣١ العلـم وضيـاؤه ١٤٣
٣٢ العمامة فوق الهامة ٧٦
٣٣ عمـق الإيمـان ٢٢٣
٣٤ قصّر ولم يقصّر ٤٤
٣٥ قصص السـمر ١٠٥
٣٦ لا طيـرة ٢٦٠
٣٧ اللغة مصدر فخر ٢٩٥
٣٨ اللقب والنّبز به ٢٣٣
٣٩ ما آفة الأخبار إلا رواتها ٣٣٢
٤٠ مجالسـة الرجـال ١٤٩
٤١ مخـارج موصلـة ١٣٦
٤٢ المـرأة والشـاعر ٣٤٦

٤٣ المعادن وثقافة الشاعر ٩٩

٤٤ المقدمـــــة ٥

٤٥ مقياس حُسن الخلق ٣٥٤

٤٦ منذ يوم التأسيس ٦١

٤٧ من القلب إلى الرب ٢٤١

٤٨ من هموم الحكـام ١١١

٤٩ الموعظة في ثوب رشيق ١٢٦

٥٠ نافذة على التربية ٣١٤

٥١ الناس والزمـان ٣٤٠

٥٢ نحن مسـبوقون ٣٠٧

٥٣ نظـرة ونظـرة ٢٩٠

٥٤ نقاش العلمـاء ١٩٠

٥٥ وسـائل إقنـــاع ٣٣

٥٦ الوضـع وكشـفه ٣٠١

٥٧ يكـيل له بصاعـه ١٣١

٥٨ ويؤثرون على أنفسهم ١٩٥

***

(٣) فهرس الأسماء

(أ)

إبراهيم بن العباس: ٥٣، ٥٤
إبراهيم النخعي: ١٩٣
إبليس: ٢٧، ١٠٢، ١٠٨، ١٦٥
ابن زيدون: ٣٣٧
ابن الرومي: ١٥٣
ابن عائشة: ٣٣
ابن عباس: ٢٥٣
ابن هبيرة: ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨
أبو الأسود الدؤلي: ٨٠
أبو بكر الصديق: ٣٣٧
أبو بكر بن عمر: ٢٥٨، ٢٥٩
أبو تمـــام: ٣١٨
أبو جعفر المنصور: ٢٣٥، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٩٣
أبو الجهير الخراساني النخاس: ٩٨
أبو حنيفة: ١٣٩، ١٤٠
أبو حيان التوحيدي: ١٥١، ١٥٣، ١٥٤
أبو ذر الغفاري: ١٦٢، ١٦٣
أبو سعيد السيرافي: ١٥٣
أبو شاكر الديصاني: ٣١
أبو الشيعي محمد بن عبدالله بن رزين: ٣٥٠
أبو عمرو الأوزاعي: ١٧٣، ١٧٤
أبو عمرو بن العلاء: ٤٢، ٤٣
أبو الهذيـل: ٢٩٣
أبو يوسف القاضي: ١٩
أحمد بن أبي داؤد: ٢٩٣
أحمد بن صالح المؤدب: ٢٤
الأحنف بن قيس: ١٨٧
الأحنف بن قيس: ٣٢٩، ٣٣٤
آدم : ١٠٧، ١٠٨
أسامة بن منقذ: ٣١٢
أسامة بن زيد بن حارثة: ٣٣٧
إسماعيل السدّي: ٥٨، ٦٠
أشعب: ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٣٤
الأصمعي: ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٣٤٥
الأعمش: ١٩٤
أم ذرة: ١٨١
إياس بن معاوية: ١٨٧، ٣٣٤، ٣٣٧، ٣٣٨
إيتـاخ: ٢٩٣

(ب)

بشـار: ٢٤، ٢٥، ٥٤، ١٠٢، ٣٠٥
باهلـة: ٣٠٦

(ج)

الجاحظ: ١٤، ٩٠، ٩٧
جريـــر: ٣٣١
الجريري ـ القاضي: ٤٢
جعفر بن يحيى: ٢٢٢
جـوان: ١٣
جوان ابن عمر بن أبي ربيعة: ١٤

(ح)

حاتم الطائي: ١٨٧، ٣٣٤

حافظ إبراهيم: ٢٢٩

الحجـــاج: ٩٨

حسين النجار: ١٣٤، ١٣٥

حماد الراوية: ١٢٤، ١٢٥

(خ)

خالد بن عقبة بن أبي معيط: ١٨٢

الخطفي (جد جرير): ٣٣١

خليل بن أيبك الصفدي: ٣٣٧

(د)

دعبـــــل: ٥٣

(ر)

الرسول ﷺ : ٥٨، ١٢٨، ١٤٣، ١٨٣، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٩٣، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٥٧، ٣٦٦.

الرشـيد: ٢٠٥، ٢٠٦

الـروم: ١٠٠

(ز)

زبيد الأيامي: ١٧٩

زفر بن الهذيل: ١٤٠

زياد: ١١٤، ١١٦

زياد بن عبدالله الحارثي: ٢٥٨، ٢٥٩

زيد بن ثابت: ٥٨، ٥٩

(س)

سعيد بن سلم بن قتيبة : ٢٦٥

سفيان الثوري: ١٣٩، ١٤٠

سلمان الفارسي: ١٥٩، ١٦٠، ١٦١

سلم بن قتيبة: ٢٦٧

سلم الخاسر: ٢٤، ٢٥

بنو سـلول: ٣٠٦

سليمان بن عبدالملك: ١٥٣

سهل بن هارون: ٢٨١، ٢٨٣

سوار بن كعب: ٣٣٨

سيف الدولة: ٢٩٣

الشافعي: ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٨٤

الشرقي بن القطامي: ٢٣٧

القاضي أبو أمية شريح بن الحارث: ٢٢٤

شريك بن عبدالله: ١٣٩، ١٤١

الشـماخ: ٢٧٨

(ص)

صُبَيَّة: ١٤

صفوان: ١٠٢

(ع)

عائشة: ١٨٣

عبّادة (أم جعفر بن يحيى): ٢٢٢

العباس بن المأمون: ٤٩

عبدالرحمن بن معربي: ١٣٩

عبدالعزيز البشري: ٢٢٩

الملك عبدالعزيز: ٤٦، ٦١، ٦٢، ٦٤، ٧٤

عبدالله بن زيد القبيسي: ١٤٤
عبدالله بن عامر بن كريز: ١٨٢، ١٨٤، ١٨٦
عبدالله بن مسعود: ١١٩، ١٢٠
عبدالله بن مسلم (عبدالله الفقير): ٢٣٩
عبدالملك الأصمعي: ٤٢
عبدالملك بن مروان: ١٥٢، ١٧٢، ٢٣٥، ٢٩٢
عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود: ١٥٢
عتاب بن أسيد: ٣٣٨
عثمان بن عفان: ٢٣٥
عرابة الأوسي: ٢٧٨
عز الدين: ٣١٢
بنوعك: ٣٠٦
علقمة بن لبيد العطاردي: ٥٢
علي بن أبي طالب: (علي بن عبدمناف ابن شيبة بن عمرو بن المغيرة بن زيد): ٥٨، ٥٩، ٢٣٧
عمار بن ياسر: ١١٥، ١٦٦
عمر بن أبي ربيعة: ١٤
عمر بن حبيب العدوي: ٢٥٢
عمر بن الخطاب: ٢٢٥، ٣٣٧
عمر بن عبدالعزيز: ١٥٢
عمرو بن العاص: ٣١٨
العمالقــة: ١١٠
عنبسة بن عمرو الوهبي: ١١٩

(غ)

غُلَـيِّــم: ١٤

(ق)

قتيبة بن مسلم: ٢٣٩

(ك)

الكسائي: ٩٠، ٩٢

(م)

مالك بن أنس: ٥٨، ٦٠
المأمون: ٤٨، ١٢٩، ١٣٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٩٣، ٣٣٨
المبــرد: ٢٣٥
محسن الهزاني: ٢٤٣، ٢٤٤
عم محمد البواب: ٧٨
محمد الحمد الشبيلي: ١٨٨
محمد بن السري السراج: ١٥٣
محمد بن عبدالعزيز الهاشمي: ٢٢٢
محمد بن المنكدر: ١٨١
المخرق: ٢٣٣
المدائني: ٢٤٥
المرقش: (عوف بن سعد بن مالك): ٢٣٣
مروان بن الحكم: ٢٣٥
المسعودي: ٣٣٦
مسلم بن الوليد: ٢٣٥
مصعب بن الزبير: ٢٣٨، ٣١٨
معاوية بن أبي سفيان: ٢٧٨
المعتصم: ٢٩٣
الممزق (شأس بن نهار العبدي): ٢٣٣
المهدي: ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٨١، ٢٩٣، ٣٣٧، ٣٣٨
موسى الهادي: ٢٣٥

(ن)

النخشبي: ٢٩

نفطويه: ٢٣٥

(و)

الوليد بن مسلم: ٥٩، ٦٠
الوليد بن يزيد: ٩٠، ٩١، ٩٢، ١٢٤، ١٢٥

(ي)

يحيى بن أكثم: ٤٨، ٣٣٨

(٤) فهرس الأماكن

الأهواز : ٩٨
إيوان كسرى: ١٠٠
البصرة: ٢٥٢، ٣٣٧، ٣٣٨
بغداد: ٢٣٨
الجزيرة العربية: ٤٥
الحجاز: ٢٣٣
خراسان: ٥٣، ٢٤٠
دمشق: ٥٩
الرياض: ٦١، ٧٥
سمرقند: ٢٣٩، ٢٤٠
العراق: ٢٣٨
عنيزة: ٣١٥
الكوفة: ٥٩، ٦٠
المدائن: ٩٨، ١٥٩
مداينها: ٩٨
المدينة المنورة: ٢٨٧
مصر: ٧٨، ١٠٠
مكـة: ١٧٧
نجد: ٢٣٣
نهر بلال: ٣٠٦
نيسابور: ٢٣٨
هوازها: ٩٨

* * *

(٥) فهرس المراجع والمصادر

١ - **أحسن ما سمعت**

لأبي منصور عبدالملك الثعالبي

تحقيق: أحمد عبدالفتاح تما وسيد عاصم

مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت

الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م

٢ - **كتاب الاختيارين**

صنعه الأخفش الأصغر

تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة

مؤسسة الرسالة

الطبعة الثانية: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م

٣ - **أدب الدنيا والدين**

لأبي الحسن الماوردي

شرح وتعليق: محمد كريم راجح

دار إقرأ ـ بيروت

٤ - **كتاب الاعتبار**

للأمير أبي المظفر مجدالدين بن منقذ

تحقيق: الدكتور قاسم السامرائي

نشر: مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر

الرياض: الطبعة الأولى ـ ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م

٥ - **الأغـــاني**

لأبي الفرج الأصفهاني

تحقيق: لجنة من الأدباء

دار الثقافة ـ بيروت

الطبعة السادسة: ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م

٦ - **الإمتاع والمؤانسة**

لأبي حيان التوحيدي

تحقيق: أحمد الطويل

٧ - **بهجة المجالس وشحذ الذهن والهاجس**

ليوسف بن عبدالله بن عبد البر النمري القرطبي

تحقيق: محمد مرسي الخولي

دار الكتب العلمية ـ بيروت

الطبعة الثانية: ١٩٨١م

٨ - **البصائر والذخائر**

لأبي حيان التوحيدي

تحقيق: الدكتورة وداد القاضي

دار صادر ـ بيروت

٩ - **البيان والتبيين**

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

تحقيق: عبدالسلام هارون

الطبعة الأولى: مطبعة التأليف والترجمة والنشر

١٠ - **التذكرة الحمدونية**

لمحمد بن الحسن محمد بن علي بن حمدون

تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس

دار صادر ـ بيروت ، الطبعة الأولى: ١٩٩٦م

١١- **تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون**

لخليل بن أيبك الصفدي

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم

المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت

١٢- **الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي**

لأبي الفرج المعافى ابن زكريا النهرواني الجريري

تحقيق: إحسان عباس

١٣ - جمهرة أشعار العرب
لأبي يزيد محمد بن أبي الخطاب القرشي
تحقيق : الأستاذ علي فاعور
الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م
دار الكتب العلمية ـ بيروت

١٤- خلـق الإنســان
لأبي محمد ثابت بن ثابت

١٥- ديـوان الشـافعي
لمحمد بن إدريس الشافعي
تحقيق: الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي
مكتبة المعارف – الرياض
الطبعة الثالثة: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

١٦- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار
لمحمد ين عمر الزمخشري
تحقيق: الدكتور سليم النعيمي

١٧- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون
لجمال الدين ابن نباتة المصري
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم
منشورات المكتبة العصرية ـ صيد
١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

١٨- عيـون الأخبـار
لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري
تحقيق: الدكتور يوسف علي الطويل
دار الكتب العلمية ـ بيروت

١٩- الفرج بعد الشدة

لأبي علي المحسن التنوخي

تحقيق: عبود الشالجي

دار صادر ـ بيروت

٢٠- في طرق البحث

عبدالعزيز الخويطر

الطبعة الأولى: ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م

٢١- لطائف المعارف

لأبي منصور الثعالبي

تحقيق: محمد إبراهيم سليم

دار الطلائع ـ القاهرة

٢٢- المستجاد من فعالات الأجواد

لأبي علي المحسن بن علي التنوخي

تحقيق: محمد كرد علي

دار صادر ـ بيروت

عام: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م

* * *

(٦) فهرس أبيات الشعر

(أ)

دع الأيام تفعل ما تشاء	وطب نفساً إذا حكم القضاء	٨٤
عجيب ما عجب أعجبني	من غلام حكمي أَصلا	٩٠
خبروني أن سلمى	خرجت يوم المصلى	٩١

(ب)

لدوا للموت وابنوا للخراب	فكلكموا يصير إلى ذهاب	١٠٩
كأنه من سوء تأدابه	تعلّم في كتاب سوء الأدب	٢٠

(ث)

ولقد سئمت مآربي	فكأن أطيبها خبيث	٥٣

(ج)

من راقب الناس لم يظفر بحاجته	وفاز بالطيبات الفاتك اللهج	٢٥

(ح)

تغيرت البلاد ومن عليها	فوجه الأرض مغبر قبيح	١٠٨

(د)

فلا هطلت عليّ ولا بأرضي	سحائب ليس تنتظم البلادا	١٩٨
زعمت أن النار أكرم عنصرا	وفي الأرض تحيا بالحجارة والزند	١٠٢
إذا أنت حملت الخؤون أمانة	فإنك قد أسندتها شر مسند	٣٢٣

(ر)

إن الليالي للأنام مناهل	تطوى وتبسط بينها الأعمار	٣٤٣
شكوت ما بي إلى هند فما اكترثت	يا قلبها أحديد أنت أم حجر	٣٤٩

الدهر يومان ذا أمن وذا خطر والعيش عيشان ذا صفو وذا كـدر ٣٥
إذا مت ظمآنـــا فلا نـــزل القطـــر ١٩٩
من راقـب الناس مـات غمـــاً وفـــاز باللـــذة الجســـور ٢٥

(ف)

أكـل العقاب بقوة جيف الفــلا وجنى الذباب الشهد وهو ضعيف ٣٧

(ك)

ما حــك جلــدك غير ظفـــرك فتـوّل أنت جميـــع أمـــرك ٣٥

(ل)

وسؤال من لا يستجيب في استـ ـخباره كمجيب من لا يســأل ٤٣
دع لذيذ الكرى وانتبه ثم صـل واستقم في الدجى وابتهل ثم قل ٢٤٥
أخٌ خيّرٌ من آخيت أحمل ثقلـــه ويحمل عني حين يفدحني ثقلي ٥٤
إن النساء متى ينهين عن خلق فإنــه واجـــب لابد مفعـــول ٣٥٢
إن النســاء كأشجار نبتن لنـا منهن مرّ وبعض المر مأكـول ٣٥١

(م)

ألم تر مفتاح الفـؤاد لسـانه إذا هو أبدى ما يقول من الفم ١٤٧
٣٠٠
والشــر يلقــى مطـــالع الأكـــم ٢٦٦
عجبت لإزراء العيي بنفســـه وصَمْت الذي قد كان بالقول أعلما ٣٣١
وكائن ترى من صاحب لك معجب زيادتــه أو نقصه في التكلـم ٣٣٠
والحرب تركب رأسها في مشـهد عدل السفيه فيه بألف حليم ٣١٨

(ن)

إن النساء رياحين خلقن لنا   وكلكم يشتهي شم الرياحين ٣٥٠
ولئن بعثت لهم بغا   ة ما البغاة بواجدينا ٢٦٦

(هـ)

إن الليـــــالي حبـــالى   يلـــدن كـــل عجيبـــة ٣٤٣
فنحن بنو الدنيا وهن بناتها   وعيش بني الدنيا لقاء بناتها ٣٥١
فزارة بيت العز والعز فيهم   فزارة قيس حسب قيس فعالها ١٤٥

* * *

نبذة عن المؤلف:

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية.
- جزء من دراسته الإبتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة.
- حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ.
- حصل على الدكتوراة في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ.
- عيّن في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود.
- عيّن وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ.
- درّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب.
- انتقل من الجامعة رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين تقريباً، ثم وزيراً للصحة لمدة عامين تقريباً، ثم وزيراً للمعارف لمدة عاما ٢١.
- عيّن في عام ١٤١٦هـ وزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء.

كتب صدرت للمؤلف:

- نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب: «الشيخ أحمد المنقور في التاريخ».
- ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب: «عثمان بن بشر».
- ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب: «في طرق البحث».
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك: «الظاهر بيبرس» باللغة العربية.
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك «الظاهر بيبرس» باللغة الإنجليزية.
- حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب: «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر»، ونشره.
- حقق كتاب: «حسن المناقب السريّة المنتزعة من السيرة الظاهرية» لشافع بن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ.
- من حطب الليل، نشر عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- ألَّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب: «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله بن عثيمين».
- ألَّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب: «أي بُني» في خمسة أجزاء.
- ألَّف منذ عام ١٤١٤هـ كتاب «إطلالة على التراث» في ستة عشر جزءًا.
- ألَّف عام ١٤١٨هـ كتاب: «يوم وملك» جزء أول.
- ألف عام ١٤١٩هـ كتاب: «ملء السلة من ثمر المجلة»، الجزء الأول.
- ألَّف عام ١٤٢٢هـ كتاب: حديث الركبتين.

التوزيع

يطلب هذا الجزء من كتاب «ملء السلة من ثمر المجلة»، وكذا اصدارات المؤلف

من مؤسسة الجريسي للتوزيع

الرياض ١١٤٣١ ص. ب ١٤٠٥ - ت: ٤٠٢٢٥٦٤ * جدة - ت: ٦٨٢٦١٠٥

الدمام - ت: ٨٢٧١٨١١ * القصيم - ت: ٣٦٤٤٣٦٦ * خميس مشيط - ت: ٢٢٢٠٧٥٨

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ * الرياض

ردمك: ٧-٤٩-٠٤٩-٣٩-٩٩٦٠